المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

الشَّباب والشَّيب
في شِعْر سِبْط ابن التعاويذي

Youth and gray hair in the poetry of Sibt Ibn Al-Ta'awithy

بقلم الدكتور
مُحَمَّد عَطَا مُحَمَّد أَحْمَد

مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بجرجا
جامعة الأزهر الشريف ـ جمهورية مصر العربية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار مارس ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

الشّباب والشّيب في شِعْر سِبْط ابن التعاويذي

مُحَمَّد عَطَا مُحَمَّد أَحْمَد

قسم الأدب والنقد ـ كلية اللغة العربية بجرجا ـ جامعة الأزهر الشريف ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني : mohammedahmed2359.el@azhar.edu.eg

الملخص

تناول هذا البحث دراسة الشَّباب والشَّيب في شعر سِبْط ابن التعاويذي، وقد قمتُ بدراسة هذا الموضوع لمَّا تبيَّن لي كثرةُ حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب وتنوعه، ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن هذه الظاهرة في شعر سِبْط ابن التعاويذي، وكيفية تناوله لها.

وقد اعتمدتُ في هذه الدراسة على المنهج التحليلي، ووقع اختياري على هذا المنهج خاصة؛ لأستطيع من خلاله الكشف عن مكنونات النص الشعري، والوقوف على ظاهرة الشَّباب والشَّيب في شعر سِبْط ابن التعاويذي.

وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات، تناولت في المقدمة أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، والهدف منه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطة الدراسة، وبَينتُ في التمهيد معنى الشَّباب والشَّيب وأشرت -في عجالة- إلى حديث الشعراء عنهما منذ الجاهلية وحتى عصر الشاعر، ثم تحدثت -بإيجاز- عن الشاعر سِبْط ابن التعاويذي، وتناولت في المبحث الأول أنماط حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب، وفي المبحث الثاني تحدثت عن الشَّباب والشَّيب والتشكيل الفني للقصيدة، وجاءت الخاتمة مشتملة على أهم النتائج والتوصيات.

وقد توصلت من خلال هذا البحث إلى عدة نتائج أهمها: كثرة حديث سِبْط ابن التعاويذي عن الشَّباب والشَّيب وتنوعه من موضع لآخر، فتارة يمتدح الشَّباب ويبكي على ذهابه، وتارة يذَّم الشَّيب، وتارة يرضى به ويتعايش معه، وقد استطاع أن يُبرز ذلك من خلال استعانته بأدواته الفنية.

الكلمات المفتاحية: الشّباب، الشّيب، شِعر، سِبْط، التعاويذي.

Youth and gray hair in the poetry of Sibt Ibn Al-Ta'awithy

Mohamed Atta Mohamed Ahmed
Department of Literature and Criticism, Faculty of Arabic Language in Girga, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt
Email: mohammedahmed2359.el@azhar.edu.eg

Abstract

This research dealed with the study of youth and gray hair in the poetry of Sibt Ibn Al-Ta'awithy, and I had studied this topic when I found out the poet's frequent talk about youth and gray hair and its diversity, and this research aimed to reveal this phenomenon in the poetry of Sibt Ibn Al-Ta'awithy, and how to address it.

In this study, I relied on the analytical method, and I chose this approach in particular, so that I can reveal the secrets of the poetic text, and stand on the phenomenon of youth and gray hair in the poetry of Sibt Ibn Al-Ta'awithy.

The research consisted of the introduction, a preface, two sections, conclusion, the index of sources, references and the index of topics.

In the introduction, it dealt with the reasons for choosing the topic, its importance, its purpose, previous studies, the research methodology, and the study plan.

In the preface, I explained the meaning of youth and gray hair and I referred - in a hurry - to the talk of poets about them since the pre-Islamic era until the era of the poet, and then talked - briefly - about the poet Sibt Ibn -Al-Ta'awithy.

In the first section, I discussed the patterns of the poet's talk about youth and gray hair, and in the second section, I talked about youth, gray hair, and the artistic formation of the poem. The conclusion included the most important findings and recommendations.

Through this research, I reached several conclusions, the most important of which, were the poet's frequent talk about youth and gray hair and its diversity from one place to another. Sometimes he praised the youth and cried when it ended, sometimes condemned gray hair and occasionally he accepted and lived with it. He was able to show this using his artistic tools.

Keywords: Youth, gray hair poetry, Sibt, and Al-Ta'awithy.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تُعد ظاهرة الشَّباب والشَّيب مِن الظواهر الأدبية التي شكَّلت حضورًا ملموسًا في الأدب العربي في مختلف عصوره، فبداية مِن العصر الجاهلي وحتى عصرنا هذا تجد اهتمامًا ملحوظًا مِن الشعراء بالحديث عن الشَّباب والشَّيب، وتبع ذلك اهتمام كبير من الأدباء والنقاد، ولا غرابة في ذلك فالشَّباب والشَّيب يُشكلان مرحلتين مهمتين في حياة كل إنسان، والشاعر سِبْط ابن التعاويذي أحد الشعراء الَّذين أفردوا لهذه الظاهرة مساحة كبيرة في شعره، وقد جاء حديثه عنها متنوعا.

أسباب اختيار الموضوع:

دفعني لاختيار هذا الموضوع عدة أمور منها:

- منزلة سِبْط ابن التعاويذي الكبيرة فهو مِن أبرز شعراء عصره إنْ لم يكن أبرزهم كما سيأتي عند الحديث عنه.
- كثرةُ حديث سِبْط ابن التعاويذي عن الشَّباب والشَّيب.
- تنوع حديثُ الشاعر عن الشَّباب والشَّيب.
- عدم تناول أحد من الباحثين حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب بالبحث والدراسة.

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات الأدبية حول ظاهرة الشَّباب والشَّيب؛ نظرا لكثرة تناول الشعراء لهذه الظاهرة، ومِن هذه الدراسات:

- الشَّيب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور ثائر سمير حسن الشمري -مطبعة دار صفاء-عمان- الأردن- الطبعة الأولى- ١٤٥٣ه/ ٢٠١٤م.

- الشَّيب في الشعر الجاهلي للدكتور عدنان محمد أحمد -بحث منشور بمجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية بسورية -العدد ١٤- المجلد ٢١- ١٩٩٩م.
- ثنائية الشَّيب والشَّباب عند ابن حمديس الصقلي دراسة وصفية تحليلية للدكتورة أمل محسن سالم العميري -بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالزقازيق جامعة الأزهر -العدد ٣١- المجلد الثاني- ٢٠١١م.
- ثنائية الشَّيب والشَّباب في شعر تميم بن أبي بن مُقبل للدكتورة إنصاف محمد المومني، والدكتور محمد ماجد الدخيل -بحث منشور بمجلة جامعة جازان للعلوم الإنسانية بالسعودية- العدد الثاني- المجلد السادس- ديسمبر ٢٠١٧م.
- الشَّباب والشَّيب في شعر ابن المعتز دراسة موضوعية وفنية للدكتور الشافعي جلال الشافعي -بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور- العدد الثالث -المجلد الخامس- ٢٠١٨م.

هذا بالنسبة للدراسات التي تناولت لظاهرة الشَّباب والشَّيب، أما بالنسبة لسِبْط ابن التعاويذي فهناك عدة دراسات تناولت شعره، ومِن هذه الدراسات:

- سِبْط ابن التعاويذي حياته وشعره لنوري شاكر الآلوسي-مطبعة الأزهر- بغداد- الطبعة الأولى- ١٩٧٥م.
- المدح في شعر سِبْط ابن التعاويذي دراسة موضوعية وفنية- بحث مقدم لنيل درجة الماجستير للباحث مسلم عبيد الرشيدي-جامعة مؤتة- ٢٠١٠م.

- ظاهرة الحزن في شعر حادثة كفّ البصر عند سِبْط ابن التعاويذي للباحث سلامة هليل الغريب –مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب– العدد الأول– المجلد ١٤ –٢٠١٧م.

إلى غير ذلك مِن الدراسات التي تناولت شعر سِبْط ابن التعاويذي، وعلى الرغم مِن تعدد هذه الدراسات إلا إنني لم أجد –فيما وقفت عليه– عملا تناول ظاهرة الشَّباب والشَّيب عند الشاعر.

منهج البحث:

اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التحليلي؛ لأستطيع الوقوف على ظاهرة الشَّباب والشَّيب عند سِبْط ابن التعاويذي، والكشف عن مكنونات النص الشعري عنده.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أنْ يُقسّم إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة يليها بيان بالمصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

المقدمة: تناولت فيها أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، والهدف منه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث وخطته.

التمهيد: بينت فيه معنى الشَّباب والشَّيب، وجانبا مما ذكره الأدباء عنهما، ثم تحدثت فيه –بإيجاز– عن الشاعر سِبْط ابن التعاويذي.

المبحث الأول: **أنماط حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب**، **وفيه**:

أولا: الدعوة إلى اغتنام الشَّباب.

ثانيا: ذم الشَّيب والبكاء على انقضاء الشَّباب.

ثالثا: التعايش مع الشَّيب، والدعوة لاغتنامه.

المبحث الثاني: **الشَّباب والشَّيب والتشكيل الفني للقصيدة**، **وفيه**:

المحور الأول: الشباب والشيب والتجربة الشعرية.

المحور الثاني: الشَّباب والشَّيب وبنية القصيدة.

المحور الثالث: الشَّباب والشَّيب والصورة.

المحور الرابع: الشَّباب والشَّيب وموسيقا القصيدة.

الخاتمة: وتحوي أهم نتائج البحث.

فهرس المصادر والمراجع، **وفهرس الموضوعات**.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

التمهيد

١-مفهوم الشَّباب والشَّيب:

الشَّباب في اللغة كما ذكر ابن منظور: الفَتاء والحداثةُ، من شبَّ يشِبُّ شَبَابًا وَشَبِيبَةً، وَالِاسْمُ الشَّبِيبةُ، وَهُوَ خِلافُ الشَّيب.(١)

والشَّيبُ: بَياضُ الشَّعَر، والمَشِيبُ مِثْلُه، وربَّما سُمِّيَ الشَّعَرُ نَفْسُه شيْبًا، والمَشِيبُ أيضًا: دُخُولُ الرَّجُلِ فِي حَدِّ الشَّيب من الرجال، والأَشْيَبُ: المُبْيَضُّ الرأْس.(٢)

ومِن النقاد والباحثين مَن يُقدِّم في كتاباته ذِكْرَ الشَّباب على الشَّيب ومنهم من يُقدِّم الشَّيب على الشَّباب عندما يقرن بينهما،(٣)والمنطقي أنْ نقول الشَّباب والشَّيب؛ لأنَّ الشَّباب سابق والشَّيب لاحق، وقد آثرت هذا الرأي وسرت عليه، ولعل مَنْ قدَّم الشَّيب على الشَّباب نظر إلى أنَّ الشعراء – غالبا– لا يذكرون شبابهم، ولا يتباكون عليه إلا بعد بلوغهم الكِبَر، ومعاناتهم مع الشَّيب.

والناس في حديثهم عن الشَّباب والشَّيب مختلفون بين مادح لهما وذامّ، وقد ذكر الكتَّاب والأدباء جملة مِن هذه الأقوال فمما ورد في مدح الشَّباب قول بعض البلغاء: الشَّباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله كما أنَّ أطيب الثمار بواكيرها، والشَّباب أبلغ الشفعاء عند النساء وأكثر الوسائل

---

(١) يُنظر لسان العرب لابن منظور ١/ ٤٨٠ –مطبعة دار صادر – بيروت –الطبعة الثالثة– ١٤١٤هـ.

(٢) يُنظر السابق ١/ ٥١٢.

(٣) يُنظر على سبيل المثال: ثنائية الشَّباب والشَّيب في شعر تميم بن أُبي بن مقبل، والشباب والشَّيب في شعر عبد الله بن المعتز، والشهاب في الشَّيب والشباب للشريف المرتضي، وثنائية الشَّيب والشَّباب عند ابن حمديس الصقلي.

لقلوبهن، وما بكت العرب على شيء ما بكت على الشَّباب، ولو لم يكن هذا الشَّباب حميدا وزمانه حبيبا لوسامة صورته وبهجة منظره وجمال خلقته واعتدال قامته لما جاور الله في جنات خلده الشَّباب.(١)

ومما قيل في ذم الشَّباب: الشَّباب مظنة الجهل، ومطية الذنوب، وسُكر الشَّباب أشد من سُكر الشراب، والشَّباب جنونٌ برؤه الكِبَر.(٢)

ومما قيل في مدح الشَّيب: الشَّيب حلية العقل وسمة الوقار، وزبدةٌ مخضتها الأيام، وفضةٌ سبكتها الأعوام.(٣)

ونقل الثعالبي عن بديع الزمان الهمذاني كلاما في مدح الشَّيب وذم الشَّباب فقال: جزى الله المشيب خيرا فإنه أناة، ولا رد الشَّباب فإنه هنات، وأظن الشَّباب والشَّيب لو مثّلا لكان الأول كلبا عقورا، والآخر شيخا وقورا، فالحمد الله الذي بيَّض القار وسماه الوقار، وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد.(٤)

ويذكر الشريف المرتضى جانبا مما يمدح به الشَّيب فيقول: يُمدح الشَّيب بأنَّ فيه الجلالة والوقار والتجارب والحنكة، وأنَّه يصد عن القبائح، ويعظ من نزل به فيقلل إلى الهوى طماحه، وفي الغيّ جماحه، وأنَّ لونه أنصع الألوان وأشرفها.(٥)

---

(١) يُنظر المستطرف في كل فن مستطرف لأبي الفتح الأبشيهي ص ٢٨٠– مطبعة عالم الكتب – بيروت– الطبعة الأولى– ١٤١٩ه.

(٢) يُنظر التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ص ٣٨٢ – مطبعة الدار العربية للكتاب– الطبعة الثانية– ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) يُنظر السابق ص ٣٨٣ وما بعدها.

(٤) يُنظر اللطائف والظرائف لأبي منصور الثعالبي باب مدح الشَّيب ص ٢٥٧ وما بعدها – مطبعة دار المناهل– بيروت– دون الإشارة إلى رقم الطبعة وسنة الطباعة.

(٥) يُنظر الشهاب في الشَّيب والشباب للشريف المرتضي ص٣ –مطبعة الجوائب–قسطنطينية– الطبعة الأولى– ١٣٠٢ه.

ومما جاء في ذمِّ الشَّيب قول قيس بن عاصم: الشَّيب خطام المنيّة، وقال آخر: الشَّيب بريد الحمام، وقال آخر: الشَّيب توءم الموت، وقال آخر: الشَّيب عنوان الكِبَر،(١) ومما ورد في ذم الشَّيب أيضا قول بعضهم: الشَّيب مجمع الأمراض، ونذير المنية وأول مواعيد الفنا، وناعي الشَّباب، ورسول البلى، وقناع الموت، والشَّيب عنوان الفساد.(٢)

ويذكر الشريف المرتضي أنَّ الشيب يذمّ لأنَّه: رائد الموت ونذيره، وأنَّه يوهن القوة، ويضعف المنة، ويطمع في صاحبه، وأنَّ النساء يصددن عنه، ويعبن به، وينفرن عن جهته، وربما شُكي منه لنزوله في غير زمانه، ووفوده قبل إبانه، وأنه بذلك ظالم جائر.(٣)

والمطالع للشعر العربي قديما وحديثا يجده مليئا بأحاديث الشعراء عن الشَّباب والشَّيب، بل إنَّ الباحث يعجز عن الإحاطة بهذه الظاهرة لكثرة ما ورد فيها من أشعار، ولنبدأ من ذروة الشعر وقمته من الشعر الجاهلي، فهذا عبيد بن الأبرص ذهب شبابه وألمَّ به الشَّيب، فرأى أنَّ الشَّيب عيب ونقيصة فقال:(٤) (البسيط)

بانَ الشَّباب فَآلى لا يُلِمُّ بِنا ∴ وَاحتَلَّ بي مِن مُلِمٍّ الشَّيب مِحلالِ

وَالشَّيب شَينٌ لِمَن يَحتَلُّ ساحَتَهُ ∴ لِلَّهِ دَرُّ سَوادِ اللِمَّةِ الخالي

(١) يُنظر عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٣٤٩ -مطبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤١٨ه.

(٢) يُنظر التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ص ٣٨٦ بتصرف.

(٣) يُنظر الشهاب في الشَّيب والشباب للشريف المرتضي ص٤.

(٤) ديوان عبيد بن الأبرص شرح أشرف أحمد عدرة ص ١٠٤، ١٠٥-مطبعة دار الكتاب العربي-بيروت-الطبعة الأولى- ١٤١٤ه/ ١٩٩٤م.

وفي عصر صدر الإسلام نجد حسان بن ثابت -ﷺ- والَّذي عُمِّر طويلا يصور حاله بعدما ذهب شبابه، وضعف بدنه، وعلاه الشَّيب، وتركته الغواني بعدما كن يأنسن به، ويرى حسان-ﷺ- أنَّ هذه هي سنة الحياة فالشَّباب سيرحل وسيعقبه الشَّيب، وهذا الشَّيب يدعو للتفكر والتدبر، يقول حسان-ﷺ-:[1] (الطويل)

كَبِرتُ كَذاكَ المَرءُ ما عاشَ يَكبُرُ ∴ وَقَد يَهرَمُ الباقي الكَبيرُ المُعَمَّرُ

لَقَد كُنَّ يَأتينَ الغَواني يَزُرنَني ∴ بِأَردانِها مِسكٌ ذَكيٌّ وَعَنبَرُ

وَلَمّا رَأَينَ البيضُ شَيبي وَذَرنَني ∴ وَنادَينَني يا عَمُّ وَالشَّيب يوذِرُ

تَنَفَّرنَ عَنّي حينَ أَبصَرنَ شامِلاً ∴ عَلى مَفرِقي كَالقُطنِ بَل هُوَ أَنوَرُ

وَكُنَّ خِلالي يَومَ شَعري كَأَنَّهُ ∴ جَناحُ غُدافٍ أَسوَدٍ حينَ يُنشَرُ[2]

أَريعُ عَلَيهِ البانِ في كُلِّ لَيلَةٍ ∴ فَيُصبِحُ جَعداً كَالعَناقيدِ يَقطُرُ

وَقَد كُنتُ أَمشي كَالرُدَينِيِّ ثابِتًا ∴ فَصِرتُ كَأَنّي ظالِعُ الرِجلِ أَصوَرُ

فَبُدِّلتُ شَيباً بَعدَما اسوَدَّ حالِكٌ ∴ مَتى مَسَّهُ خَضبٌ إِذا هُوَ أَحمَرُ

كَرابيَةٍ حَمراءَ في رَأسِ حالِقٍ ∴ عَلى شَعَفٍ بادٍ لِمَن يَتَبَصَّرُ

عَلا الشَّيب رَأسي بَعدَما كانَ أَسوَدًا ∴ وَفي الشَّيب آياتٌ لِمَن يَتَفَكَّرُ

وَبَعدَ الشَّباب الشَّيب وَالضَعفُ وَالفَنا ∴ وَمَوتٌ لَهُ قَدرٌ عَبوسٌ مُكَدِّرُ

---

(١) ديوان حسان بن ثابت تحقيق د/ وليد عرفات ١/ ٤٧١، ٤٧٢ -مطبعة دار صادر- بيروت - ٢٠٠٦م.

(٢) الغُداف: الغُراب، وَخَصَّ بَعْضُهُمْ بِهِ غُراب الْقَيْظِ الضخْمَ الوافِرَ الْجَنَاحَيْنِ، وَالْجَمْعُ غُدْفانٌ، وَرُبَّمَا سُمِّي النَّسْرُ الكثيرُ الريشِ غُدَافاً، وكَذَلِكَ الشَّعْرُ الأَسود الطَّوِيلُ وَالْجَنَاحُ الأَسود. وشعرٌ غُدَاف: أَسود وَافِرٌ. يُنظر لسان العرب لابن منظور ٩/٢٦٢.

وإذا انتقلنا إلى العصر الأموي نجد الأحوص الأنصاري يرى أنَّ الشَّيب يحمل مع مجيئه رجاحة العقل، والسداد في الرأي، وهو الداعي للتقى والعفاف، والإقلاع عن الذنوب والمعاصي فيقول:[١] (الكامل)

وَالشَّيب يَأمُرُ بِالعَفافِ وَبِالتُّقى ∴ وَإِلَيهِ يَأوى العَقلُ حينَ يَؤُولُ

فَإِنِ استَطَعتَ فَخُذ بِشَيبِكَ فَضلَةً ∴ إِنَّ العُقولَ يُرى لَها تَفضيلُ

وهذا إبراهيم بن هرمة ممن عاصر دولة بني أمية وبني العباس يصور شعوره بطول الأيام وثقلها بعدما انقضى شبابه وعلاه الشَّيب، هذا الشَّيب الَّذي كان سببا في هجر الغانيات له، ونفورهن منه فيقول:[٢] (الوافر)

لَئِن أَيامنا أَمسَت طِوالاً ∴ لَقَد كُنّا نَعيشُ بِها قِصارا

رأَيتُ الغانياتِ نفرنَ لَمّا ∴ رأينَ الشَّيب أَلبَسَني عِذارا

وَما يُنكِرنَ مِن قَمَرٍ مُنيرٍ ∴ بُعيدَ شَبابِه لقيَ السرارا

يتضح لنا مما سبق أنَّ كثيرا من النقاد والشعراء في مختلف العصور الأدبية قد تحدثوا عن الشَّباب والشَّيب، وكان لكل منهم نظرة خاصة، وإنْ غلب على كثير منهم مدحهم الشَّباب؛ لما فيه من قوة ونشاط وقدرة على تحقيق الأماني، وبلوغ الآراب، وذمّهم الشَّيب؛ لما يصحبه من ضعف، وانصراف لملذات الحياة، كما غلب على كثير.

---

(١) شعر الأحوص الأنصاري جمعه وحققه عادل سليمان جمال ص ٢١٨ -مطبعة مكتبة الخانجي-القاهرة-الطبعة الثانية-١٤١١ه/ ١٩٩٠م.

(٢) ديوان إبراهيم بن هرمة تحقيق محمد جبار المعيبد ص ١١٠ -مطبعة الآداب-النجف-العراق- ١٣٨٦ه/ ١٩٦٩م.

٢ -التعريف بالشاعر:

أولا: اسمه ونسبه:

ذكرت كتب التراجم أنَّ سِبْط ابن التعاويذي هو: أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن التعاويذي، ويعرف أيضا بسِبْط ابن التعاويذي، وكلاهما نسبة لجدّه لأمه أبي محمد المبارك ابن المبارك بن علي السراج الجوهري المعروف بابن التعاويذي[١] وقد نُسب إلى جَدّه المذكور؛ لأنَّه كفله صغيرا، ونشأ في حجره فنُسب إليه.[٢]

ثانيا: مولده ونشأته:

وُلد أبو الفتح ابن التعاويذي في اليوم العاشر من رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة.[٣]

وقد نشأ الشاعر في حجر جده فطُبع بطابع بيئة جدّه العلمية حيث كانت تُعقد حلقات الذِّكر، وقد تأثر سِبْط ابن التعاويذي كثيرا بالروح العلمية والدينية خاصة التي كانت تظلل العصر كله، وقد أخذ العلم من منابعه الأصلية حيث استمع إلى شيوخ عصره في الفقه واللغة والأدب، فأثرت فيه تلك الحياة وأثَّر فيه مقام جدّه فبعث فيه إباء وترفعًا واعتدادا بالنفس.[٤]

---

(١) يُنظر معجم الأدباء لياقوت الحموي تحقيق إحسان عباس ٦/ ٢٥٦٠-مطبعة دار الغرب الإسلامي- بيروت -الطبعة الأولى- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

(٢) يُنظر وفيات الأعيان لابن خلّكان تحقيق إحسان عباس ٤/ ٤٦٦ -مطبعة دار صادر- بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٧١م.

(٣) يُنظر معجم الأدباء لياقوت الحموي تحقيق إحسان عباس ٦/ ٢٥٦٧.

(٤) يُنظر سِبط ابن التعاويذي حياته وشعره لنوري شاكر الآلوسي ص ٤٣-مطبعة الأزهر- بغداد- الطبعة الأولى- ١٩٧٥م.

ونجد الشاعر يتحدث معتزا بنفسه، ومفتخرا بذاته فيقول في مقدمة ديوانه: على أنني كنت أقل غشيان الأبواب، وأنزه نفسي عن موقف كل خزي وعاب.(١)

وكان الشاعر محبا للأدب، وقد بدا ميله إلى الأدب وخاصة الشعر حين اتسع أفقه، فأوغل في دروبه، وراح في مفاوزه وسهوله، وتمكن من ناصيته.(٢)

وكان الشاعر يعمل كاتبا بديوان الإقطاع ببغداد، واجتمع به العماد الكاتب الأصفهاني لمَّا كان بالعراق وصحبه مدة، فلما انتقل العماد إلى الشام واتصل بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب كان ابن التعاويذي يراسله.(٣)

ثالثا: منزلته الأدبية:

من يُطالع ديوان سِبْط ابن التعاويذي يتبين له أنَّه يقف أمام شاعر على درجة عالية من الثقافة وسعة الاطلاع، وقد كان موغلا في معاجم اللغة محيطًا بمفرداتها.(٤)

وقد قال عنه ياقوت الحموي: كان شاعر العراق في وقته.(٥) وقال عنه ابن خلّكان: كان أبو الفتح المذكور شاعر وقته، لم يكن فيه مثله، جمع

(١) يُنظر مقدمة ديوان سبط ابن التعاويذي اعتنى بنسخه وتصحيحه د.س. مرجليوث ص ١٢ –مطبعة المقتطف بمصر– ١٩٠٣م.

(٢) يُنظر سِبط ابن التعاويذي حياته وشعره لنوري شاكر الآلوسي ص ٤٣.

(٣) يُنظر معجم الأدباء لياقوت الحموي تحقيق إحسان عباس ٦/ ٢٥٦١.

(٤) يُنظر سِبط ابن التعاويذي حياته وشعره لنوري شاكر الآلوسي ص ٧٩.

(٥) يُنظر معجم الأدباء لياقوت الحموي تحقيق إحسان عباس ٦/ ٢٥٦٠.

شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها، وهو في غاية الحسن والحلاوة، وفيما أعتقد لم يكن قبله بمائتين سنة مَن يضاهيه.(١)

وقد ذكر نوري شاكر الآلوسي أنَّ سِبْط ابن التعاويذي امتاز بطول النَّفَس وقدْ تجاوزت كثير من قصائده السبعين بيتا، وله منها ما يتجاوز عدد أبياتها ثلاثين ومائة، ومع طولها قد لا نجد فيها ما يُستهجن أو ينبو ولا تبدو عليها الركاكة أو الجنوح إلى المبهمات أو الألفاظ العامية التي تخرج على دائرة الطابع العام.(٢)

وقد جاء كثير من شعر سِبْط ابن التعاويذي في المديح، وكان يُعظِّم في شعره الخلفاء العباسيين ويُكثر من الإعلان عن حبّه لهم إعجابًا بطيب محتدهم، وعراقة نسبهم، ولذودهم عن الإسلام بصلابة بالغة أمام أطماع الصليبيين.(٣) كما مدح صلاح الدين الأيوبي مثمنا بطولته، ومتغنيا بإقدامه.(٤)

وقد ترك سِبْط ابن التعاويذي ديوانا شعريا كبيرا، وَقد جمعه بِنَفسِهِ ورتبه أَرْبَعَة فُصُول ثمَّ ألحقهُ بعد ذَلِك بِزِيَادَات، وصنف كتابا سَمَّاهُ الحجبة والحجاب. (٥)

(١) يُنظر وفيات الأعيان لابن خلّكان تحقيق إحسان عباس٤/ ٤٦٦.

(٢) يُنظر سِبط ابن التعاويذي حياته وشعره لنوري شاكر الآلوسي ص ١١٠.

(٣) يُنظر السابق ص ٨٤.

(٤) يُنظر السابق ص ٨٢.

(٥) يُنظر الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى٤/ ١٢ -مطبعة دار إحياء التراث -بيروت- ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

رابعاً وفاة الشاعر:

أُصيب الشاعر في أواخر عمره بالعمى وكان ذلك سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وله في ذلك أشعار كثيرة يندب بها بصره وزمان شبابه.(١) وتوفي في شوال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ببغداد.(٢) وبذلك يكون الشاعر مات قبل أنْ يُتم الخامسة والستين من عمره، وكانت حياته كلها في ظل الدولة العباسية.

(١) يُنظر معجم الأدباء لياقوت الحموي تحقيق إحسان عباس ٦/ ٢٥٦١.

(٢) يُنظر السابق ٦/ ٢٥٦٧.

المبحث الأول

أنماط حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب

إنَّ مَنْ يقف متأنيا مع شِعر سِبْط ابن التعاويذي يَجِد أنَّ حديثه عن الشَّباب والشَّيب قد استحوذ على جانب كبير من شعره، وجاء متنوعا ومختلفا، فتارة تجده يدعو إلى اغتنام الشَّباب، وتارة تجده يبكي على ذهابه، وتارة تجده يذمَّ الشَّيب، وتارة تجده يرضى بالشَّيب ويتعايش معه، وهذه الكثرة وذلك التنوع دليل على أنَّ حديث الشَّاعر عن الشَّباب والشَّيب قد شكَّل ظاهرة ملموسة، ولعل كثرة حديثه هذه ترجع إلى أنَّ الشيب حلَّ به مبكرًا، ومما يُرجح ذلك ويؤيده قوله:[1] (الكامل)

يا طالِبًا بَعدَ المَشيبِ غَضارَةً ∴ مِن عَيشِهِ ذَهَبَ الزَمانُ المُذهَبُ

أَتَروومُ بَعدَ الأَربَعينَ تَعُدُّها ∴ وَصلَ الدُما هَيهاتَ عَزَّ المَطلَبُ

فالشاعر يرى أنَّ مجيء المشيب هو نهاية العيش الرغيد، وبداية الحياة المنغصة، ثم ينكر على نفسه وعلى من هو على شاكلته ممن جاوز الأربعين السعيَ خلف النساء وطلب مودتهن؛ لأنَّ هذا السعي كما يرى الشاعر بلا فائدة، فالنساء لا يرغبن في مثله، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الشاعر شاب عند الأربعين أو قبلها، وحديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب يدور في أنماط ثلاثة أوضحها فيما يأتي:

أولا: الدعوة إلى اغتنام الشَّباب:

تعد مرحلة الشَّباب أهم المراحل العمرية، التي يمر بها الإنسان، ففيها ينعم الإنسان بالقوة والنشاط والقدرة على مواجهة أعباء الحياة، ولذلك يسعى الإنسان إلى الاستفادة من هذه المرحلة؛ ليحقق آماله وأحلامه، وهذه

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٣.

الآمال وتلك الأحلام تختلف من شخص لآخر، وقد دعا سِبْط ابن التعاويذي إلى اغتنام أوقات الشَّباب فقال:[١] (مخلع البسيط)

قُمْ فَاغتَنِم غَفلَةَ الزَمانِ ∴ ما دُمتَ مِنهُ عَلى أَمانِ

ما دامَ عودُ الشَّباب غَضّا ∴ تَرغَبُ في وَصلِكَ الغَواني

تَفتَضُّ عَذراءَ بِنتَ كَرمٍ ∴ أَنحَلَها المَكثُ في الدِّنانِ(٢)

تَضحَكُ في كَأسِها سُروراً ∴ إِذا بَكَت أَعيُنُ القَناني(٣)

ما رَقَصَت في الكُؤوسِ إِلّا ∴ نَقَّطَها المَزجُ بِالجُمانِ(٤)

حَتّى تَراها مِنّا عِقالاً ∴ لِليَدِ وَالرِجلِ وَاللِسانِ

يدعو الشاعر في أبياته السابقة إلى اغتنام مرحلة الشَّباب قبل ذهابه، والاستمتاع بالملذات بكل أنواعها، وقد أتى بفعلين متواليين (قُمْ فَاغتَنِم) والغُنْم كما ذكر ابن منظور: الفَوْز بِالشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، والاغتِنام: انْتِهَازُ الغُنم[٥] ثم إنّه أتى بالفاء العاطفة التي تفيد التعقيب، فهو لا يُريد إضاعة الوقت، أو التفريط في الملذات، فهذه الملذات بالنسبة إليه غنيمة يجب أنْ تُقتنص، وهو لا يعنيه إنْ كانت هذه الملذات حلالا أم حراما، فلينعم الإنسان

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٤٣.

(٢) الدِّنان: جمع دن وهي الجرة الضخمة كانت توضع فيها الخمر. يُنظر المخصص لابن سيده تحقيق خليل إبراهم جفال ٣/ ١٩٩- طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت-الطبعة الأولى- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٣) القناني جمع القِنِّينَة وهي وعاء مِنَ الزُّجَاجِ يُجْعَل الشَّرابُ فِيهِ. يُنظر لسان العرب لابن منظور ١٣/ ٣٤٩.

(٤) الجُمَان: خَرَز من فِضَّة أمثال اللُّؤلُؤ وهو فارِسِيٌّ معَرَّب. يُنظر المخصص لابن سيده ١/ ٣٧٣.

(٥) يُنظر لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٤٤٥.

بالغواني، وليشرب من الخمر ما يشاء، وقوله: (غَفلَة الزَمانِ) وكأن الزمان يتغافل عن الإنسان أوان شبابه، ويغض الطرف عن أفعاله، فإذا ما مضى الشباب استفاق الزمان من غفلته، وصوَّب سهامه نحو الإنسان فما يزال به حتى يرديه، ويستطرد الشاعر في وصف الخمر وصف الخبير بها فهي ليست خمرا عادية وإنما هي خمر معتقة أَنحلَها المَكثُ في الدِّنانِ، ثم يصور الشاعر لحظة إفراغ هذه الخمر من القنان في الكؤوس فإذا بهذه الخمر وكأنها تضحك فرحًا وسرورًا، وكأنها كانت حبيسة، فلما خرجت من القناني فرحت وطربت، وفي المقابل تبكيها أَعيُنُ القَناني، وكأن هذه القناني حزينة على فراق الخمر، فإذا ما انتقلت الخمر إلى الكؤوس فإنها تتلألأ وتلمع وكأنها تغري الناظرين وتدعوهم لارتشافها، ثم يختم الشاعر أبياتها بقوله: "حتّى تَراها مِنّا عِقالاً..." أي حتى يغيب الإنسان عن عالمه، ويصبح أسيرا للخمر، وأصل الكلام: تَفتَضُّ عَذراءَ بِنتَ كَرمٍ حتى تراها، وما بينهما من وصف للخمر جاء اعتراضا، وهو يريد أنْ يستمر في الشرب حتى يصل إلى هذه النهاية حيث لا يستطيع فكاكا من عقالها، ولا خلاصا من تأثيرها.

وفي موضع آخر يدعو الشاعر إلى اغتنام أوقات الشباب وعدم التفريط فيها، ولكنها دعوة تختلف عن السابقة فهنا يدعو إلى العمل الصالح فيقول:[1] (مجزوء الكامل)

خُذ مِن شَبابِكَ وَانتَهِز ∴ أَيّامَ صِحَّتِكَ الفُرَصْ
تَشري المَآثِمَ مُغْلِيًا ∴ وَتَبيعُ دينَكَ مُرتَخِصْ
أَوَما تَرى ظِلَّ الشَبيـ ∴ ـبَةِ عَن عِذارِكَ قَد قَلَصْ؟
أَعرِض عَنِ الدُنيا المَشو ∴ بَةِ بِالنَوائِبِ وَالغَصَصْ

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٤٨.

كَـــــم جَرَّعَـــــت أَبناءَهـــــا ∴ مِـــن فَتكِهـــا بِهِـــم الـــنَّغَصْ؟
وَاعلَـــــم إِذا مـــــا زِدتَ مـــــا ∴ لَـــا أَنَّ عُمـــرَكَ قَـــد نَقَـــصْ
وَغَـــدًا تَـــراهُ في يَـــدِ الـــ ∴ ـــوُرّاثِ مُقتَسَـــمًا حِصَـــصْ
وَانظُـــر لِطـــائِرِ نَفسِـــكَ الـــ ∴ مَحبـــوسِ في هَـــذا القَفَـــصْ
حَتّـــى تَـــراهُ مِـــنَ المَخـــا ∴ وَفِ وَالمَكـــارِهِ قَـــد خَلَـــصْ

يستهل الشاعر أبياته السابقة داعيا نفسه ومحبيه إلى انتهاز أيام الشباب، وأوقات الصحة والنشاط، والانتهاز كما ذكر ابن منظور من المُناهَزَة وهي المُبادَرَةُ، يُقَالُ: ناهَزْتُ الصيدَ فَقَبَضْتُ عَلَيْهِ قَبْلَ إِفلاتِه، وانْتَهَزَها وناهَزَها: تَنَاوَلَهَا مِنْ قُرْب وَبَادَرَهَا وَاغْتَنَمَهَا[1] فالشاعر يرى أنَّ أيام الشباب، وأوقات الصحة مغنم يجب أنْ يبادر إليها، وفرصة يجب ألا تفوّت، وأصل الكلام: وَانتَهِزْ الفُرَص أَيّامَ صِحَّتِكَ ثم أتى بقوله: (أَيّامَ صِحَّتِكَ) للتأكيد على أنَّ أوقات الصحة والقوة ينبغي ألا تُضيَّع، ثم يسوق الشاعر كلاما جيدا فيقول:

تَشـــري المَـــآثِمَ مُغْلِيًـــا ∴ وَتَبيـــعُ دينَـــكَ مُـــرتَخِصْ

فالكلام وإنْ كان خبريا إلا أنه يحمل دلالة الإنشاء، فالشاعر يستنكر أنْ يشتري الإنسان المآثم مُضيّعا شبابه وصحته وهي أغلى ما يملك فإذا اجتمع إليها إضاعة ماله فيكون بذلك قد أضاع كل ما يملك، وباع دينه بثمن بخس، ويريد الشاعر ألا يدع مجالا للعبث، ومحاولة التفريط في أوقات الشَّباب فيُذَكِّر نفسه بأنَّ شبابه أوشك على المغادرة، وبدأ الشيب الَّذي هو علامة الكِبَر في غزو رأسه، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من الإعراض عن هذه الدنيا التي لا تستحق عناء التمسك بها، ذلك لأنَّ نعيمها زائل، وصفوها

(١) يُنظر لسان العرب لابن منظور ٥/ ٤٢١.

مكدر، وعيشها منغص، وهي إذا أعطت فسرعان ما تأخذ، وإذا أقبلت فتوشك أنْ تدبر، فكم غدرت بمن أعطاها الأمان؟ وقوله: (جرَّعت) فيه تصوير بديع يُصور الألم والحزن الَّذي يتجرعه من يركن إلى الدنيا وظلها الزائف، ولا بد للإنسان أنْ يتعظ فإنه لا يزيد في جانب إلا ونقص في آخر، ويدلل على ذلك بقوله:

وَاعلَم إذا مـا زِدتَ مـا ∴ لَـا أَنَّ عُمـرَكَ قَـد نَقَـصْ

فزيادة المال تقتضي بذل الجهد والوقت، وذلك يقتضي نقصان العمر، وربما أفنى الواحد عمره في جمع المال ثم رحل وتركه إلى وارثيه ولذلك قرَّب الشاعر هذه الصورة ووضعها بين يديه فقال:

وَغَـدًا تَـراهُ في يَـدِ الـ ∴ ـوُرّاثِ مُقتَسَـمًا حِصَـصْ

وقوله: (وغدًا) إشارة إلى قرب الأجل، وأنه آت لا محالة، وأمَّا قوله: (الورَّاث) فصيغة مبالغة تشير إلى كثرة الورثة، وهذه الكثرة تقتضي أنْ يكون فيهم من يحب الميت ومن يكرهه، وقد يئول مال الإنسان بعد أنْ يفني عمره في جمعه إلى شخص يكرهه، ثم يدعو الشاعر إلى تحرير الروح من قيود الدنيا وأغلالها حتى تنطلق محلقة في ملكوت المولى -ﷻ- دون خوف أو قلق، وهذا الكلام يجري فيه نَفَسٌ صوفي نقي.

وإذا نظرنا إلى هذا النموذج وإلى النموذج الَّذي قبله وجدنا بينهما بونًا كبيرا، وفرقا شاسعا، وأعتقد أنَّ النموذج الأول قاله في طور شبابه، والنموذج الأخير قاله بعدما بدأ شبابه في الرحيل، وشتان بين نظرته للشباب وهو في سن الشَّباب وريعانه، ونظرته له بعدما دهمه الكِبَر.

ثانيا: ذمُّ الشَّيب والبكاء على انقضاء الشَّباب:

عندما يؤذن عهد الشباب بالرحيل، وتبدأ علامات الكِبَر وآياته في الظهور، يشعر الإنسان بتغير كبير واختلاف عظيم في حياته، فيشتعل الرأس شيبا، وتضعف القوة، ويقل النشاط، ويعجز الإنسان عن إنجاز كثير مما يرجوه ويأمله، وهنا يبدأ سخطه على هذا الضيف الجديد، ويشرع في الشكوى منه، والنقمة عليه، وقد عاش سِبط ابن التعاويذي هذه المرحلة العمرية، فقد دهمه الكِبَر وفشا في رأسه الشيب؛ فجاشت مشاعره، وهاجت قريحته، وأخذ يبكي على شبابه الَّذي مضى، معلنا اعتزازه بطور شبابه المنصرم حيث كان يتمتع ببهجة الدنيا وزينتها، ويأنس بالنساء ويأنسن به، ويرغبن فيه، أمَّا بالنسبة للشيب فقد كان بالنسبة للشاعر ضيفا ثقيلا، وزائرا بغيضا كرهه الشاعر وذمَّه في مواضع عدة ومن ذلك قوله:[1]

(مجزوء الخفيف)

يا زَمانَ المَشيبِ لا ∴ جاءَكَ الغَيثُ مِن زَمَنْ

أَنتَ أَظهَرتَ مِن عُيو ∴ بِ أَخي الشَّيب ما بَطَنْ

وَالحَبيبُ الخَوّانُ لَو ∴ لاكَ يا شَيبُ لَم يَخُنْ

قَلَبَ الدَهرُ في تَقَلُ ∴ لُبِهِ لي ظَهرَ المِجَنْ

فَرَماني مُجاهِرًا ∴ بِالمُلِمّاتِ وَالمِحَنْ

فَمَتى يا صُروفَهُ ∴ تَنقَضي بَينَنا الإِحَنْ

يبدأ الشاعر أبياته السابقة متخذا من الزمان شخصا يهاجمه ويدعو عليه؛ لأنه أظهر من عيوبه ما كان خافيا، مما جعل محبوبته تنصرف عنه،

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٢٧.

ثم يستخدم الشاعر أسلوب التشخيص مرة أخرى حينما يخاطب الشَّيب ويجعله شريكا للزمان فيما حلَّ به، فقد مهدا لخيانة محبوبته له، وتأمل المبالغة في قوله: (والحبيب الخوَّان) وما دلت عليه من شدة غدر المحبوبة وخيانتها، وكأنها كانت تتحين فرصة لتغدر به، ثم يعاود الشاعر مرة أخرى ذم الزمان ولومه مستخدما طريق الاستعارة في قوله: (قَلَبَ الدَهرُ في تَقلُبِهِ لي ظَهرَ المِجَن)، وتأمل قوله: (فَرَماني مُجاهِرًا ....) وما في هذا الرمي من قوة وكثرة لملماته ومحنه، وكأن هذه الملمات أقبلت عليه تترا يعقب بعضها بعضا، فلا تنقضي ملمة أو محنة إلا وتخلفها أخريات، وتأمل أيضا استخدام الشاعر أسلوب التدوير في ثلاثة أبيات متتالية وكأن هذا التدوير الَّذي شطر هذه الكلمات يحاكي ما يعانيه الشاعر من انقسام أحدثه الزمان والشَّيب في نفسه، ثم إنه استخدم قافية النون الساكنة ليشعرك بانقطاع نفسه نهاية كل بيت، ويختتم الشاعر أبياته متمنيا أن تصفو له الأيام، ونحن نعلم أنَّ التمني إنما يستخدم فيما استبعد أو استحال وقوعه، وكأن هذا إقرار من الشاعر بأنَّ أيام الصفاء والرخاء ولَّت إلى غير رجعة.

ويبكي الشاعر أيام شبابه وفتوته فيقول:[1] (الكامل)

للَّهِ أَيّامٌ بِجيرَتِنا الأُلى ∴ سَلَفَت وَلَيلاتٌ بِهِنَّ مَواضي

أَيّامَ لا سَيفُ المَلامَةِ مُنتَضًى ∴ دوني وَلا أَنا لِلشَبيبَةِ ناضي

ما سَرَّني بَعدَ الشَّباب مُوَدَّعًا ∴ خَلَفٌ وَلا عِوضٌ مِنَ الأَعواضِ

إِن فَلَّلَت غَربي الخُطوبُ وَبَدَّلَت ∴ غُدرًا سَوادَ غَدائِري بِبَياضِ

فَلَطالَما خاطَرتُ في حُبِّ الدُمى ∴ وَخَطَرتُ في ثَوبِ الصِبا الفَضفاضِ

ما لِلحِسانِ قَطَعنَ بَعدَ تَواصُلٍ ∴ حَبلي وَفيمَ سَخِطنَ بَعدَ تَراضي

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٤٩.

وَعَـــلامَ أَســـهُمِيَ الصَـــوائِبُ كُلَّمـــا ∴ فَـــوَّقتُهُنَّ عَـــدَلنَ عَـــن أَغراضـــي

أَرضـــى بِحَـــظِّ العـــاجِزِ الـــواني وَقَـــد ∴ جَـــرَّدتُ عَـــزمَ المُعمِـــلِ الرَكّـــاضِ[1]

سِـــيّانِ عِنـــدي مـــا لَبِســـتُ قَنـــاعَتي ∴ ثَـــوبَ الثَـــراءِ وَحُلَّـــةُ الإِنفـــاضِ

يتحسر الشاعر في أبياته السابقة على أيامه التي خلت، ويترحم على لياليه التي مضت، تلك الأيام والليالي التي كانت مع جيرته الأولى، وفي هذا إشارة إلى أنَّه رحل عن هذه الجيرة، ومع ذلك ظلت ذكراها عالقة بنفسه، يتحسر عليها، ويحن لها، ويشتاق إليها، وسبب هذا الحب والاشتياق لهذه الأيام فسره بيته الثاني حيث كان في شبابه وفتوته يحيا حياة مطمئنة، ويعيش عيشة رغدة، ولأنه امتلك هذه المقومات فقد أمِن لوم العذَّال، وإعراض الحِسان، فلمَّا مضى شبابه ودهمه الكِبَر والشَّيب، وتوالت عليه الخطوب، وتكاثرت عليه الأهوال والأحزان، أعرضت عنه الحسان، وأصبحت أهدافه وغاياته بعيدة المنال، فلم يجد الشاعر بُدا مِن محاولة الصبر على ما صار إليه، والرضى بحاله، والأبيات تصور حياة الشاعر بين الشَّباب والكِبَر، وقد استطاع الشاعر أنْ يصور كل شطر من حياته بما يناسبه، وقوله: "فلَّلت غربي الخطوب وبدَّلت..." تصوير بديع لشدة هذه الخطوب وضراوتها وقوة تأثيرها، وقد استطاع الشاعر من خلال إتيانه بالطباق أنْ يُظهر حيرته وحسرته تجد ذلك في قوله: "سواد وبياض، قطعن وتواصل، سخطن وتراضي، الصوائب وعدلن، العاجز الواني، المعمل الركَّاض" وكأن هذا التضارب وهذه المقابلة نوبات حزن وألم عاشها الشاعر.

(١) الواني: من الوَنا وهو الضَّعْفُ والفُتور والكَلالُ والإعْياء. يُنظر لسان العرب لابن منظور ١٥/ ٤١٥.

وفي موضع آخر يصور الشاعر طوري شبابه وكهولتـــه فيقـــول: [1] (البسيط)

شَـوطٌ مِـنَ العُمـرِ أَنضَيتُ الشَبيبَةَ في ∴ مَيدانِـــهِ فَرَحًـــا وَالعُمـــرُ مَيـــدانُ

أَيّـــامَ شَـــرخُ شَـــبابي رَوضَـــةٌ أُنُـــفٌ ∴ مـا ريـعَ مِنـهُ بِـوَخطِ الشَّيبِ رَيعـانُ[2]

تَقِـرُّ بـي عَـينُ نَـدماني فَهـا أَنـا قَـد ∴ أَمسَـيتُ مـا لـيَ غَـيرَ الهَـمِّ نَـدمانُ

يصور الشاعر في أبياته السابقة عمره وقد قسمه قسمين: أولهما قسم الشَّباب والقوة والنضارة، وقد عاشه الشاعر فرحا مسرورا، يغشاه أصحابه وندمانه، وأخرهما قسم المشيب والكِبَر وقد انفضَّ عنه ندمانـــه وأصـــحابه وتركوه وحيدا معزولا لا أنيس له ولا جليس سوى الهم والحـــزن، وتأمـــل قوله: (أَنضَيتُ الشَبيبَةَ) وكأنه قد أخذ كامل حظه من شبابه، فلم يترك موطنا يجد فيه الراحة والسعادة إلا أخذ منه بحظ وافر، وفيه أيضا دلالة علـــى أنَّ شبابه هذا كان شباب قوة ونضارة وغنى، وظل الأمر هكذا حتى فشا الشَّيب في رأسه فأحدث في نفسه انكسارا وألما شديدا، وتأمل قوله: (فَها أَنـــا قَـــد أَمسَيتُ ما لي غَيرَ الهَمِّ نَدمانُ) فقد صور انتقاله إلى حالة أخـــرى بعـــد أن غشاه الشَّيب، وكأن حالته قد تبدلت بين عشية وضحاها، ونلحظ أنَّ الشاعر أوجز القول في حالته بعدما ألمَّ به الشَّيب، وهذا من عادة النفس –في بعض حالاتها– فإنها تضرب صفحا عن ذكر ما تكره.

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤١٣.

(٢) شَرْخُ الشَّباب: قُوَّتُه ونَضارته. لسان العرب لابن منظور ٣/ ٢٩، وخـــط الشَّـــيب: فُشُـــوُّ الشَّيْب فِي الرأْس، وَقَدْ وخَطَه الشيبُ وخْطاً أي خالَطَه. يُنظر السابق ٧/ ٤٢٤.

ثالثا: التعايش مع الشَّيب، والدعوة لاغتنامه:

يجب على الإنسان أنْ يُدرك بأنَّ حياته أطوار يتبع بعضها بعضا، فإذا انقضى طور الطفولة تبعه طور الشباب، وإذا انقضى طور الشباب تبعه طور الكهولة، وقد يُعاني الإنسان عند الانتقال من طور إلى طور ثم لا يلبث – غالبا– أنْ يتعايش مع طوره الجديد ويتأقلم مع معطياته، ولطور الكهولة طابع خاص في حياة كل إنسان، فبمجرد أنْ يبدأ هذا الطور يشعر الإنسان بأنَّ أيامه في الدنيا أصبحت قليلة، فيبدأ كثير من النَّاس في محاولة إدراك ما فاتهم، واغتنام ما تبقى من أعمارهم، وإذا كانت النماذج السابقة بينتْ لنا كيف كان سِبْط ابن التعاويذي ناقما على كهولته، باكيا على أيام شبابه وفتوته؟! فالنماذج الآتية ستوضح لنا كيف تعايش الشاعر مع طور كهولته، ودعا إلى اغتنام ما تبقى من العمر يقول الشاعر:[1] (مخلع البسيط)

لم يَبقَ لي في هَوى الغَواني ∴ مُنذُ تَقَضّى الصِبى طَماعَه
أَعرَضنَ عَنّي فَكُنتُ قِدمًا ∴ فيهِنَّ ذا إِمرَةٍ مُطاعَهُ
خَلَعتُ نَفسي مِنَ التَصابي ∴ ما لِأَخي الشَّيب وَالخَلاعَه
أَنكَرنَ مِنّي شَيبًا وَعُدمًا ∴ وَلا بِضاعٌ وَلا بِضاعَه

لقد أيقن الشاعر أنَّ شبابه أدبر وولَّى، ولا سبيل إلى عودته، فبدأ في التخلي عن بعض أفعاله التي كان يفعلها في طور شبابه، فها هو ذا يعلن اعتزاله الغواني والبعد عنهن، لكنَّ هذا البعد ليس زهدا فيهنَّ وإنما نتيجة لإعراضهنّ عنه، وابتعاده عنهن بعد إعراضهن فيه إشارة لاعتزازه بنفسه وصونه لها عما يذلها، وتأمل قوله: (تَقَضّى) وهو كما أورد ابن منظور أنَّ أصله: تقضّض من تقضض البازي إذا أسرع في طيرانه منكدرا

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٦٩.

على الصيد، فلما اجتمعت ثلاث ضادات قُلبت إحداهن ياءًا[1] وهذا التضعيف يوحي بتحسر الشاعر ومعاناته، وصعوبة مفارقته شبابه، وفيه -أيضًا- إشارة إلى سرعة ذَهاب صباه وانقضائه، وقوله: (قدما) دليل على أنَّ شبابه ولّى منذ زمن فبدأ في مرحلة التعايش مع الشيب والكِبَر، وقوله: (خلعت نفسي من التصابي) تصوير بديع لمفارقته مواطن اللهو والعبث، وفي هذا إشارة إلى أنَّ مفارقة الشاعر شبابه لم تكن سهلة، وإنما كانت بالغة الصعوبة، وكأن الشاعر انتزع نفسه انتزاعًا، وفيه إشارة -أيضًا- إلى مسارعة الشاعر في التخلي عن نزوات الصبا لمَّا أيقن أنِّ شبابه قد ولَّى إلى غير رجعة، وذلك دليل على صدق عزيمته، وإصراره على الأوبة والإقلاع عن نزوات الصبا، وبيت الشاعر الأخير وصف دقيق لما وصل إليه من كبر سن وفقر، فقد شاب شعره، وذهب ماله، وضعف جسده حتى أنه لا يستطيع أنْ يأتي النساء.

وفي موضع آخر يصور الشاعر تعايشه مع الشيب بل ورضاه به مؤكدا إصراره على الإقلاع عن نزوات الشباب فيقول:[2] (مجزوء الكامل)

وَلَقَد نَزَعتُ عَنِ الغَوا ∴ يَةِ لابِسًا ثَوبَ الوَقارِ

لَمّا تَبَلَّجَ فَجرُ فودي ∴ وَانجَلى لَيلُ العِذارِ

عِلمًا بِأَنَّ الشَّيبَ يُظـ ∴ ـهِرُ ما تَسَتَّرَ مِن عَواري

يُؤكد الشاعر في أبياته السابقة انصرافه عن مواطن اللهو واللعب، ولزومه باب الجدِّ والالتزام، وقد دفعه لذلك ما رآه من شيب غزا فوديه ولحيته، وهذا الشَّيب يكشف كل ما يريد الإنسان إخفاءه من عيوب ونقائص،

(١) يُنظر لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٣٩٢.

(٢) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢١٣، ٢١٤.

وتأمل قوله: "ولقد نزعت" فقد استهل أبياته بهذا القسم المؤكد ولا يخفى ما في النزع من سرعة وشدة وقد قدَّم هذا البيت على الَّذي يليه وكان مستساغا أن يبدأ بالبيت الثاني ولكنه عدل عن ذلك تشويقا للمتلقي فتركه يتساءل ما سبب تركه للغواية؟! فجاء بالبيت الثاني جوابا عن هذا السؤال، وفي البيت الأول -أيضا- إشارة إلى صدق عزيمته، وعلو همته؛ لأنه لمَّا رأى بوادر الشَّيب في فوديه عجَّل إلى التوبة، وسارع إلى الإقلاع عن الذنوب وعن كل شيء يُخلّ بما صار إليه حاله، ونلحظ أنَّ تعبير الشاعر عن تعايشه مع الشيب، وابتعاده عمَّا يُشينه، ومسارعته إلى التوبة في هذه الأبيات أكثر حدة من تعبيره في سابقتها فقد استخدم الشاعر في الأبيات السابقة عند تعبيره عن الإقلاع عن الغواية كلمة (خلعت) وأصل الخَلْع كما ذكر ابن منظور: مأخوذ من خَلع الشيءَ يَخْلَعُه خَلْعًا واختَلَعه كنَزَعه إلا أَنَّ فِي الخَلْعِ مُهْلة.(١) بينما استخدم الشاعر في هذه الأبيات عند تعبيره عن الإقلاع عن الغواية كلمة "نزعت" والنَّزع مأخوذ من نَزَعَ عَن الأُمُورِ والصِّبَا نُزُوعًا إذا انْتَهَى عَنْهَا وكَفَّ(٢)، فهو في هذه الأبيات أكثر حرصًا على إظهار إقلاعه عن الغواية ولذا استخدم (نزعت)، كما أنَّه لم يتعرض في هذه الأبيات إلى ذكر إعراض النساء عنه، وكأنَّ هذا الأمر أصبح لا يعنيه ولا يشغله.

ويدعو الشاعر إلى تدارك ما فات واغتنام ما تبقى من العمر فيقول:(٣)

(الكامل)

---

(١) يُنظر لسان العرب لابن منظور ٨/ ٧٦.

(٢) يُنظر تاج العروس للزبيدي تحقيق مصطفى حجازي ٢٢/ ٢٣٩ -مطبعة حكومة الكويت- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٣) ديوان سبط ابن التعاويذي ص٣٢٦.

أَتَغَـــزُّلاً بَعـــدَ المَشـــيبِ وَصَـــبوَةً ∴ سَـــفَهًا لِرأيِـــكَ شـــائِبًا يَتَغَـــزَّلُ

هَيهـــاتَ مـــا لِلبـــيضِ في ودِّ امـــرِئٍ ∴ إِربٌ وَقَـــد وَلّـــى الشَّـــباب المُقبِـــلُ

أَعرَضـــنَ لَمّـــا أَنْ رَأَيـــنَ بِلِمَّـــتي ∴ أَمثـــالَهُنَّ وَقُلـــنَ داءٌ مُعضِـــلُ

يستنكر الشاعر – مخاطبا نفسه ومن على شاكلته ممن بلـغ الكِبَـر– على من يتصابى بعد أنْ علاه الشيب، وأصابه الكِبَر مُسفهًا رأي من يفعـل ذلك، وقد استهل الشاعر أبياته بهذا الاستفهام الَّذي يوحي بشـدة الصـراع والمعاناة التي يعيشها الشاعر، وهذا الكلام وراءه كلام كثيـر سـكت عنـه الشاعر، فهو يريد أنْ يقول يا نفسي ويا من حاله كحالي لا تتصـابَى وقـد علاك المشيب؛ لأنَّ هذا التصابي لن يُفيدك بشيء، بل سـارِع إلـى العمـل الصالح، واغتنم ما تبقى من عُمُرك؛ لأنَّ هذا ما يناسبك في هـذه المرحلـة العمرية، ثم يسوق الأدلة على صحة كلامه، وصواب مذهبه، وهو أنَّ النساء لا رغبة لهنَّ فيمن ولَّى شبابه، وعلاه الشيب، وكأنَّ الشاعر يقـول لنفسـه ولمن على شاكلته ماذا ستستفيد من هذا التصابي وأنتَ لن تجني من ورائه شيئا؟!!

المبحث الثاني

الشَّباب والشَّيب والتشكيل الفني للقصيدة

تناولت في المبحث السابق أنماط حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب، وسأتحدث في هذا المبحث عن الشَّباب والشَّيب والتَّشكيل الفنِّي للقصيدة وسيكون ذلك من خلال أربعة محاور بيانها فيما يأتي:

المحور الأول: الشَّباب والشَّيب والتجربة الشعرية:

تُعد التجربة الشعرية من أهم ما يميز الشعراء بعضهم عن بعض؛ لأنَّ الشاعر الَّذي يمتلك زمام الشاعرية هو الَّذي يستطيع من خلال تجربته الشعرية الصادقة أن يثير انفعال المُتلقي، ويحرك مشاعره الصادقة، والتجربة الشعرية كما يعرفها الدكتور غنيمي هي: "الصورة الكامنة النفسية، أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيرًا ينم عن عميق شعوره، وإحساسه، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي، وإخلاص فنى، لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول ليعبث بالحقائق أو يجارى شعور الآخرين لينال رضاهم، بل إنَّه ليغذي شاعريته بجميع الأفكار النبيلة، ودواعي الإيثار التي تنبعث عن الدوافع المقدسة، وأصول المروءة النبيلة، وتشف عن جمال الطبيعة والنفس"(١).

ولكي تكون التجربة صادقة لا بد للشاعر أنْ يُعانيها ولو في عالم الخيال، وأنْ يعيش مع تجربته ويستغرق فيها بقلبه وعقله ووجدانه حتى يستطيع أن ينقل لنا مشاعره وينقلنا إلى عالمه، وقد أشار الدكتور إبراهيم أبو الخشب إلى ذلك بقوله: صدق التجربة لا يعني بالضرورة مطابقتها

(١) النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال ص ٣٦٣ -مطبعة دار نهضة مصر- القاهرة – الطبعة السادسة- ٢٠٠٥م.

للواقع؛ لأنَّ ذلك قدْ يكون مِن شأن التجارب العلمية، أما التجارب الشعرية فالصدق فيها يعني أنْ تكون مطابقة لوجدان الشاعر موضحة لحقيقة مشاعره.(١)

ويقول الدكتور العزب: "فالشاعر ليس إلهًا ليعاني كل مفردات الظاهرة الكونية على نحو مباشر، ولكنّه قد يعانيها بالمعايشة العاطفية وديمومة التفكير في إيقاعها كما هي، أو كما هي عند الأغيار، وهو حين يستدعي فكره وذاكرته وخياله وعاطفته ليعيش التجربة الغيرية فإنما يؤهل نفسه بالضرورة لمعانقة الصدق الفني"(٢)

وتظهر هذه المعاناة الصادقة مِن خلال لغة الشاعر وصوره وموسيقاه وامتزاج هذه العناصر بأكملها حتى يَشعر المتلقي لهذا الشعر بما أحسه الشاعر، وقد استطاع سِبط ابن التعاويذي أنْ ينقلنا إلى عالمه، ويُشعرنا بما أحسه، وقد ساعده على ذلك صدق عاطفته، ومعايشته التجربة معايشة حقيقية، وامتلاكه الأدوات الفنية التي أعانته على إبراز تجربته، يقول الشاعر باكيا بصره الَّذي ذهب وشبابه الَّذي انقضى:(٣) (الكامل)

يا مُهدِيَ الوَردِ الجَنِيِّ لَنا ∴ جَرِيًّا عَلى عاداتِهِ الأُوَلِ
إنَّ الزَمانَ رَمى وَلَيَّكُمُ ∴ في مُقلَتَيهِ بِحادِثٍ جَلَلِ
فَمَتى يُسَرُّ بِمَنظَرٍ حَسَنٍ ∴ وَالحَظُّ عِندَ الحُسنِ لِلمُقلِ

(١) يُنظر في محيط النقد الأدبي للدكتور إبراهيم أبي الخشب ص ٢١٨ – مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الأولى – ١٩٨٥م.

(٢) عن اللغة والأدب والنقد رؤية تاريخية ورؤية فنية للدكتور محمد أحمد العزب ص ٣٦٩ – مطبعة دار المعارف – الطبعة الأولى – ١٩٨٠م.

(٣) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٣٥٨، ٣٥٩، وهذه القصيدة أنشدها الشاعر حينما أهدَى له عزّ الدين أبو منصور بن عضد الدين بن رئيس الرؤساء وردا جنيا . السابق ٣٥٨.

أَهـــدَيتَها مِثـــلَ الخُـــدودِ خُـــدو ∴ د البـــيضِ قَـــد دَمِيَـــت مِـــنَ الخَجَـــلِ
حَســـناءَ جـــاءَت مِـــن مَلابِســـها ∴ مُختالَـــةً في أَحسَـــنِ الحُلَـــلِ
في غَـــيرِ مَوسِـــمِها وَقَـــد ذَهَبَـــت ∴ أَيّامُهـــا وَالـــدَهرُ ذو دُوَلِ
فَكَأَنَّهـــا كانَـــت قَـــد انفَـــرَدَت ∴ عَـــن جِنسِـــها تَمشـــي عَلـــى مَهَـــلِ
لَـــم أَحـــظَ مِنهـــا وَهـــيَ حاضِـــرَةٌ ∴ عِنـــدي بِغَـــيرِ الشَـــمِّ وَالقُبَـــلِ
فَعَرَفـــتُ عَرفَـــكَ مِـــن رَوائِحِهـــا ∴ وَفَهِمـــتُ مِنهـــا حُســـنَ رَأيِـــكَ لـــي[1]
كَـــم مِـــن يَـــدٍ لَـــكَ لَســـتُ أُنكِرُهـــا ∴ مَشـــكورَةً أَمثالُهـــا قِبَلـــي
عَـــذراءَ يَضـــعُفُ عَـــن تَحَمُّلِهـــا ∴ شُـــكري كَمـــا يَقـــوى بِهـــا أَمَلـــي
أَذكَـــرتَني عَصـــرَ الشَـــّباب بِهـــا ∴ وَمَواسِـــمَ الأَفـــراحِ وَالجَـــذَلِ
أَيّـــامَ لا أُرعـــي لِعاذِلَـــةٍ ∴ سَـــمعي وَلا أُصـــغي إِلى العَـــذَلِ
فَـــاليَومَ عَـــودُ الـــدَهرِ مُحتَطَـــبٌ ∴ ذاوٍ وَشَـــمسُ العُمـــرِ في الطَفَـــلِ[2]
لَـــم يَبـــقَ لـــي في لَـــذَّةٍ أَرَبٌ ∴ أَنـــا مِـــن زِحـــامِ الهَـــمِّ في شُـــغُلِ
أَبكـــي عَلـــى الـــدُنيا وَبَهجَتِهـــا ∴ وَعَلـــى اِقتِـــرابِ مَســـافَةِ الأَجَـــلِ
فَاســـحَب ذُيـــولَ سَـــعادَةٍ فُضُـــلا ∴ في ظِـــلِّ عَـــيشٍ نـــاعِمٍ خَضِـــلِ

ما أشد أنْ تتحول مصادر البهجة والهناءة إلى مصادر بؤس وتعاسة!! والشاعر في قصيدته السابقة يصور لنا حاله، وينقل معاناته عندما أُهدي إليه وردٌ في غير أوانه وبدلا مِنْ أنْ تكون هذه الهدية مصدر بهجة وسعادة للشاعر كانت له مصدر حزن وألم، وكان الشاعر قد أصيب بفقد بصره في هذا الوقت فأصبح لا يُسرُ بمنظر حسن، ولا يفرح بمشهد بهي، وما أشدَّها

(١) عرفك: العَرْفُ الرِّيحُ، طَيِّبَةً كَانَتْ أَو خَبِيثَة. يُنظر لسان العرب لابن منظور ٩/ ٢٤٠.
(٢) الطِّفْل: الشمسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا. يُنظر السابق ١١/ ٤٠٣.

من مصيبة، وما أعظمه من رزء، حين يُصاب الإنسان بهذه المُصيبة الجلل!!

ثم يستطرد الشاعر في وصف هذا الورد الجميل الَّذي يشبه -في بياضه المختلِط بالحُمرة- خدودَ الحِسان من النساء، وهذا تشبيه مقلوب، فالأصل أنْ يُشبَّه الخدّ بالورد، وكأنَّه أتى بهذا التشبيه على هذه الصورة، ليشابه مجيئه في غير أوانه، ومجيئُه في غير أوانه من ناحيتين، الأولى: أنَّه أتى في غير موسمه، والأخرى: أنَّه أتى بعد أنْ فقد الشاعر بصره، فلم ينعم برؤية جماله، وإنما اكتفى بتقبيله وشمّه، وقول الشاعر:

فَعَرَفتُ عَرفَكَ مِن رَوائِحِها ∴ وَفَهِمتُ مِنها حُسنَ رَأيِكَ لي

يُشير إلى تعلق الشاعر بالممدوح وحبّه له، واشتياقه إليه، والفاء في قوله: (فَعَرَفتُ) تفيد معنى المفاجأة، وكأنَّ رائحة الممدوح الطيبة التي فاقت رائحة الورد فاجأت الشاعر حينما قَدِم بها الرسول فعرفها الشاعر، ولهذا الممدوح على الشاعر أياد بيضاء لا يستطيع الشاعر الوفاء بها، وقوله: (عذراء) وصف لهذه الأيادي يُفيد أنّها أيادٍ بِكر متفردة لم يُسبق إليها، وكأنَّ رائحة الممدوح هذه التي سرت في جسد الشاعر قد ذكَّرته بكل خصال الممدوح الحميدة، ليس هذا فحسب وإنما ذكَّرت الشاعر أيضا بأيامه الخوالي حينما كان يتمتع بشبابه وفتوته، وينعم بملذات الحياة وبهجتها، فلا يستمع لقول لائم، ولا يخضع لرأي عذول، أما الآن فقد ولَّت أيام شبابه النضرة، وتزاحمت الهموم عليه، حتى شغله بعضها عن بعض، وقد أحس الشاعر بدنو أجله، واقتراب رحيله فلم يجد سوى بكائه أنيسا له ومُعينا، لقد استطاع الشاعر أنْ ينقل لنا تجربته الحزينة مرتكزا على عاطفته الحزينة المتألمة، ومستعينا بأدواته الفنية المتعددة، بداية من معاناته الصادقة وانتهاء

بموسيقاه ومرورا بألفاظه وأساليبه وصوره نجد ذلك في قوله: "رَمى وَلِيَّكُمُ في مُقْلَتَيهِ بِحادِثٍ جَلَلِ، فَمَتى يُسَرُّ بِمَنظَرٍ حَسَنٍ، فَاليَومَ عودُ الدَهرِ مُحتَطَبٌ ذاوٍ، وَشَمسُ العُمرِ في الطَفَلِ، لَم يَبقَ لي في لَذَّةٍ أَرَبٌ، أَنا مِن زِحامِ الهَمِّ في شُغُلٍ، أَبكي عَلى الدُنيا وَبَهجَتِها، وَعَلى اِقتِرابِ مَسافَةِ الأَجَلِ" فتأمل كيف جعل من الزمان شخصا يرميه، وتأمل ما في هذا الرمي من قوة وشدة، وهو لم يرمه بحادث هين وإنما رماه بحادث جلل عظيم جعله يعيش معاناة وبؤسا، ويفقد الشعور بالسعادة والهناء، وتأمل أيضا قوله:

فَاليَومَ عودُ الدَهرِ مُحتَطَبٌ ∴ ذاوٍ وَشَمسُ العُمرِ في الطَفَلِ[1]

لَم يَبقَ لي في لَذَّةٍ أَرَبٌ ∴ أَنا مِن زِحامِ الهَمِّ في شُغُلِ

لقد استطاع الشاعر من خلال هذه الصورة أنْ يُبرز مدى معاناته وألمه، ويكشف عن افتقاده الشغف في الحياة، إنَّه يرسم صورة سوداوية لما وصل إليه من حزن وشقاء، ومما زاد هذه الصورة سوادا وحزنا أنَّه قابلها بصورة ماضيه ناصعة البياض، حين كان ينعم بالفتوة والشباب، والسعة والرخاء، ومن عاش سعيدا مطمئنا في شبابه ثم قلب له الدهر ظهر المجنّ ليس كمَن عاش شبابه مكدرا حزينا ثم ظل هكذا؛ لأنَّ الأخير هذا لم يعرف طعم السعادة والهناء سابقا فحسرته تكون أقل من الأول.

وكما استعان الشاعر في إبراز معاناته بألفاظه وأساليب وصوره استعان كذلك بموسيقاه فاختار بحر الكامل وهو كما يقول الدكتور عبد الله الطيب: بحر كأنما خلق للتغني المحض سواء أأريد به جد أم هزل، ودندنة تفعيلاته من النوع الجهير الواضح الذي يهجم على السامع مع المعنى

(١) الطِّفْل: الشمسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا. يُنظر لسان العرب لابن منظور ١١/ ٤٠٣.

والعواطف والصور حتى لا يمكن فصله عنها بحال من الأحوال.[1] لقد استطاع الشاعر من خلال اختيار بحر الكامل أنْ ينقل مشاعره الصادقة للمتلقي، وساعده في ذلك أيضًا اختياره حرف اللام المكسور رويا ليمثل نهاية طبيعية لهذه المشاعر الحزينة المنكسرة.

المحور الثاني: الشَّباب والشَّيب وبنية القصيدة:

يتناول هذا المحور مواضع حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب، فهل اختص الشاعر الشَّباب والشَّيب بموضع معين في القصيدة لم يجاوزه أم أنَّه غاير في ذلك؟

ولَنَدَعْ شِعر سِبط ابن التعاويذي يجيبنا عن هذا التساؤل، ونبدأ الحديث من قوله في إحدى قصائده:[2] (الكامل)

عَصرُ الشَّباب تَصَرَّمَت أَوقاتُهُ ∴ وَتَبَسَّمَت عَن فَجرِها لَيلاتُهُ

أَورى بِجِدَّتِهِ المَشيبُ فَأَخلَقَتْ ∴ أَثوابُهُ وَاستُرجِعَتْ عاراتُهُ

كانَ الشَفيعَ إِلى الحِسانِ فَمُذ مَضى ∴ أَمسَت تُعَدُّ مَساوِيًا حَسَناتُهُ

وَالشَّيب لا يُغضى لَهُ عَن هَفوَةٍ ∴ وَأَخو الصِبى مَغفورَةٌ زَلّاتُهُ

وَلَقَد عَلَوتُ سَراةَ أَشهَبَ تُجتَوى ∴ وَتُعافُ عِندَ الغانِياتِ شِياتُهُ[3]

وَمِنَ العَجائِبِ أَنَّهُنَّ أَخَذنَني ∴ بِذُنوبِهِ ظُلمًا وَهُنَّ جُناتُهُ

لا يَبعَدَن زَمَنُ الشَبيبَةِ وَالهَوى ∴ مِن ذاهِبٍ بَقِيَت لَنا تَبِعاتُهُ

---

(١) يُنظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها للدكتور عبد الله الطيب المجذوب ٣٠٣/١- مطبعة دار الآثار الإسلامية-الكويت- الطبعة الثانية- ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٢) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٦٣.

(٣) شياته: الشيات جمع الشِّية وهي سوادٌ فِي بَيَاضٍ أَو بَيَاضٌ فِي سَوَادٍ، والشِّيةُ كلُّ لَوْنٍ يُخَالِفُ مُعظم لَوْنِ الْفَرَسِ وَغَيْرِهِ. يُنظر لسان العرب لابن منظور ١٥/ ٣٩٢.

زَمَـــنٌ خَلَـــتْ أَيّامُـــهُ وَعُهُـــودُهُ ∴ وَتَنَكَّـــرَتْ أَترابُـــهُ وَلِداتُـــهُ

يستهل الشاعر قصيدته باكيا ومتحسرا على أيام شبابه التي ولَّت إلـــى غير رجعة، هذا الشَّباب الَّذي كان عدة الشاعر وسلاحه في مواجهة أعبـــاء الحياة، وكان المُعين له على وصال الحسان، والأنس بهن، فلما ولَّـــى هـــذا الشَّباب تنكر له الزمان، وهجرته الحسان؛ فبات وحيـــدا لا أنـــيس لـــه ولا جليس، وقوله: "تصرمت أوقاته" فيه دلالة على معاناة الشاعر حينما ولَّـــى شبابه، وفيه تصوير بديع أيضا لانقضاء عهد الشَّباب، وكأنَّـــه ثمـــر نضـــج فصُرِم، وقوله: "أَورى بِجِدَّتِهِ المَشيبُ فَأَخلَقَت..." وكأنـــه يصـــور معركـــة ضارية دارت رحاها بين الشَّباب والشَّيب، فلمَّا انقشع غبار المعركة أسفرت عن هزيمة كبيرة مُني بها الشَّباب، فـــولَّى مـــدبرا يجـــر أذيـــال الهزيمـــة والخسران، وقوله: "كان الشفيع إلى الحسان" إشارة إلى أنَّ الشاعر كان في فتوته وشبابه يأنس بالحسان ويأنسن به، وفيه دلالة على أنَّ الشاعر كـــان ينتقي من النساء أجملهن وأحسنهن، وقوله: "وَالشَّيب لا يُغضـــى لَـــهُ عَـــن هَفوَةٍ...." يُصور النظرة العامة نحو فئتين من الناس، الفئة الأولى: أولئـــك الذين علاهم الشَّيب، وقلَّت حظوظهم في المجتمع؛ فأصبحوا لا يُغضى عـــن خطأ منهم، والفئة الآخرة: هي فئة الشَّباب الذين يتمتعون بالفتوة والشَّباب؛ فتغفر زلاتهم، وفرق كبير بين الإغضاء والمغفرة، فأمـــا الإغضـــاء فمـــن غَضَوْتَ عَلَى الشيءِ وَعَلَى القَذى وأَغْضَيْت إذا سكَتّ، وتَغاضَيْت عَنْ فُـــلان إذا تَغابَيْت عَنْهُ وتَغافَلْت[1]، وأمَّا المغفرة فهي التَّغْطِيَةُ عَلَى الذُّنُوبِ والعفـــوُ عَنْهَا[2]، فانظر كيف لا يُغضى عن هفوة صاحب الشَّيب؟! وهي واحدة وكيف تغفر زلات أخي الصبا؟!

(١) يُنظر لسان العرب لابن منظور ١٥/ ١٢٨.
(٢) يُنظر السابق ٥/ ٢٥.

وهؤلاء الغواني لا يكرهن الشاعر فحسب بل إنهن يبغضن فرسه كذلك يقول سِبط:

وَلَقَد عَلَوتُ سَراةَ أَشهَبَ تُجتَوى ∴ وَتُعافُ عِندَ الغانِياتِ شِياتُهُ

عندما قرأت هذا البيت شعرتُ أنّه مقحم من الشاعر ولا حاجة إليه، ثم إنني لمَّا أطلتُ النَّظر فيه تبين لي –والله أعلم– أنَّ هذا الفرس ذكَّر هؤلاء الغواني بشيب الشاعر فكرهنه، وقد جاء به الشاعر لفائدة كبيرة فهو يُريد بيان بطلان رأي هؤلاء الغواني، وكأنَّه أراد أن يقول: إن كان كره هؤلاء الغواني لشيبي مبررا فلماذا يكرهن شيات فرسي؟ والشيَّة ليست بعيب في الفرس، وربما أراد أنْ يقول: إذا كانت الشيّة غير مكروهة وليست بعيب في الفرس فكذلك ينبغي ألّا يُكره الشيب الَّذي نزل برأسي وألّا يُعد عيبا، وكأنَّ هذا الفرس هو المعادل الموضوعي للشاعر، ثم يتعجب الشاعر من هؤلاء النسوة وكيف أخذنه بغير ذنب اكتسبه، وبغير إثم جناه؟! ويختتم الشاعر أبياته مترحما على أيام الصبا والشَّباب.

وفي قصيدة أخرى يدعو الشاعر صديقه إلى اغتنام عصر الشَّباب فيقول:[1] (الوافر)

وَإِنّي يا أَبا حَسَنٍ مُشيرٌ ∴ عَلَيكَ بِما عَلى نَفسي أُشيرُ

تَمَتَّع مِن شَبابِكَ وَاغتَنِمهُ ∴ فَعُمرُ نَضارَةِ الدُنيا قَصيرُ

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٣١. وصديقه هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن بادكين الجوهري، المعروف بعلم الدين الركابدار العضدي، وكان شابا ذكيًا حسن الخلق أديبًا فاضلا بارعًا، حفظ القرآن الكريم وقرأ الأدب وقال الشعر الجيد، قرأ العلوم الرياضية، ومات ببغداد في سنة سبع وسبعين وخمسمائة. يُنظر تاريخ بغداد وذيوله للخطيب البغدادي دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا ١٨/ ١٣٥ وما بعدها – مطبعة دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة: الأولى– ١٤١٧هـ.

وَلا تَـــتْرُكْ وَراءَكَ يَـــومَ لَهـــوٍ ∴ فَـــلا تَـــدري إِلامَ غَـــداً تَصـــيرُ

اختتم الشاعر بأبياته السابقة قصيدته التي أرسلها إلى صـديقه أبـي الحسن، يوصيه بما يوصي به نفسه باغتنام عصر الشباب، والتمتع بما فيه من ملذات، قبل أنْ ينصرم هذا العهد ويمضي، ثم إنَّه يبالغ في دعوته هـذه بألا يترك يوما فيه لهو دون اغتنامه والتمتع بما فيه، معللا رأيه هذا بـأنَّ عهد الشَّباب هذا لا يدوم طويلا، وأنَّ الإنسان لا يدري ماذا سيحل به غـدا، ولعله قال هذه الأبيات في طور شبابه قبل أنْ يصيبه الكِبَر ويعلوه الشَّـيب، وتتغير نظرته للحياة.

وفي إحدى مقطوعاته يصور الشاعر معاناته مع الشـيب فيقـول:[١] (الوافر)

أَسِـفتُ وَقَـد نَضَـت عَنّـي اللَيـالي ∴ جَديـدًا مِـن شَـبابٍ مُسـتَعارِ[٢]

فَكـانَ يُقـيمُ عِنـدي في زَمـانِ الـ ∴ ـصِبى لَـونُ الشَـبيبَةِ في عِـذاري

وَلَـم أَكـرَه بَيـاضَ الشَّـيبِ إِلّـا ∴ لِـأَنَّ العَيـبَ يَظهَـرُ بِالنَهـارِ

ما أجمل الأشياء حينما تكون على حقيقتها وأصـالتها، ومـا أقبحهـا حينما تكون نتاج تزييف وتزوير، وهذا في كل شيء، والعرب تقول: "ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة"[٣]، وقد فطرت النفوس السليمة علـى حب الجمال الحقيقي؛ لأنه جمال باقٍ ولو أنَّ له نهاية كعادة كـل مخلـوق، والشاعر في الأبيات السابقة يَأْسَفُ على حاله التي وصل إليها فقـد حـاول

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٨١.

(٢) نَضَت: ألقت وخلعت من قولهم نضا ثوبَه عَنْهُ نَضْواً إذا خَلَعه وأَلقاه عَنْهُ، ونَضَـا الثَّـوبُ الصِّبْغَ عَنْ نَفْسِه إذا أَلقاه. يُنظر لسان العرب لابن منظور ١٥/ ٣٢٩.

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٣٢١.

جاهدا الهروب من واقعه المرير بخضاب شَعْره حتى يُخفي هذا الشَّيب الّذي علاه، فيحظى بوصال الغواني، وأُنس النساء، ولكن هيهات له أنْ يصل إلى هدفه، أو أنْ يُحقق مبتغاه وتلك الليالي تتربص به لتكشف زيفه، وتفضح صنيعه، فتزيده حسرة على أيام شبابه، حينما كان كل شيء على حقيقته، وقد استطاع الشاعر في مقطوعته السابقة والتي جاءت في ثلاثة أبيات أنْ يُصور مرحلة انتقال الإنسان من طور الشَّباب إلى طور الكِبَر وظهور الشَّيب في رأسه، محاولا إيجاد حل لهذا الأمر، وهذه مسألة مهمة عانى منها الشاعر وما يزال يُعاني منها كثير من أفراد المجتمع ويُحاولون إيجاد حل لها، حتى وإنْ لم يكن هدفهم مِن وراء ذلك وصال النساء، وكأنَّ هناك دافعًا أعظم مِن هذا يدفعهم نحو ذلك، ربما هو حُبُّ الحياة ومخافة الموت وقد قيل: "الشَّيب رسول المنية"(١)

تبين لنا مما سبق أنَّ سِبط ابن التعاويذي أولى اهتماما كبيرا لحديثه عن الشَّباب والشَّيب فتارة يستهل قصائده بالحديث عن الشَّباب والشَّيب، ويأتي به ضمن مقدمات قصائده، ثم ينتقل إلى غرضه الأساس وهذا كثير، وتارة يختتم قصائده بالحديث عن الشَّباب والشَّيب وهذا نادر، وتارة يُفرد مقطوعة يكون مدار حديثه فيها عن الشَّباب والشَّيب وهذا كثير أيضا ولكنه دون الأول، وهذه الكثرة وذلك التنوع دليل على أنَّ حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب شكَّل ظاهرة كبيرة في شعره.

(١) سحر البلاغة وسر البراعة لأبي منصور الثعالبي تحقيق عبد السلام الحوفي ص ٣٥ – مطبعة دار الكتب العلمية–بيروت– دون ذكر رقم الطبعة وسنة الطباعة.

المحور الثالث: الشَّباب والشَّيب والتصوير الفني:

تُعد الصورة الشعرية من أهم الوسائل التي تُعين الشعراء على الكشف عن خبايا أنْفُسهم، ومكنونات صدورهم، ونقل تجربتهم للمتلقي؛ ولهذه الأهمية شغلت الصورة الشعرية حيزا كبيرا عند النقاد، واجتهدوا كثيرا في تعريفها وبيان أهميتها، فتجد الدكتور القط يعرفها بقوله: "هي الشكل الفنّي الَّذي تتخّذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خالص؛ ليعّبر عن جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة، وإمكاناتها، والدلالة، والتركيب، والإيقاع، والحقيقة، والمجاز، والترادف، والتضّاد، والمقابلة، والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفنّي"(١)

وقد أشار الدكتور علي صبح إلى أهمية الصورة الشعرية في كونها تصور انفعالات الشعراء، وتنقل مشاعرهم فقال: "الصورة الأدبية أصدق تعبير عمّا يجول في النفس من خواطر وأحاسيس وأدق وسيلة تنقل ما فيها إلى الغير بأمانة وقوة، وأجود مُوصِّل إلى الآخرين في سرعة وإيجاز ووفرة، والصورة أجمل وأنضر طريقة في شد العقل والخيال إليها، وربط الإحساس بها، وتجاوب المشاعر لها، وإحياء العاطفة وسحر النفس"(٢)

---

(١) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر للدكتور عبد القادر القط ص ٣٩٢ – مطبعة مكتبة الشباب –١٩٨٨ م.

(٢) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر للدكتور علي علي صبح ص ٣٣ – مطبعة المكتبات الأزهرية– القاهرة– الطبعة الثانية – ١٤١٦ه/١٩٩٦م.

وقد استطاع سِبْط ابن التعاويذي توظيف الصورة الشعرية في الكشف عمّا يجول في نفسه من مشاعر وأحاسيس، فتجده يصور بداية ظهور الشَّيب في رأسه فيقول:[1] (المنسرح)

آهِ لِبَيضاءَ كَالنَهارِ بَدَت ∴ غَريبَةً في أَحَمَّ غَربيبِ
وَفارِطٍ مِن صِبىً حَنَنتُ إِلى ∴ أَيّامِهِ الغيدِ حَنَّةَ النَيبِ
يا شَيبُ إِن تودِ بِالشَّباب فَقَد ∴ أَودَيتَ مِنهُ بِخَيرِ مَصحوبِ
أَغرَيتَ بِالصَّدِّ مِن أُحِبُّ فَلا ∴ غَروَ إِذا كُنتَ غَيرَ مَحبوبِ
هَب لي بَقايا شَبيبَتي وَارتَجِع ∴ ما أَكسَبَتني أَيدي التَجاريبِ
فَالشَّيب لَولَم يُعَدَّ مَنقَصَةً ∴ ما زَهِدَ البيضُ في هَوى الشَّيبِ

يُصور الشاعر في الأبيات السابقة حالته عندما رأى أول شعرة بيضاء غزت رأسه، وكأني به وهو ينظر في مرآته مصدوما مذهولا غير متوقع هذا الغزو، وكأنه بلد استيقظ فراعه أول جنود العدو وقد اخترق حصونه، ودخل هذا البلد على حين غرة من أهله، وقد أحسن الشاعر حينما ابتدأ أبياته بقوله: "آه" وهي كلمة تدل على شدة توجعه وتألمه، وهو توجع مصحوب باستنكار، وكأنه يُنكر ظهور هذه الشعرة البيضاء فجأة دون مقدمات، ثم يصف الشاعر هذه الصورة الغريبة التي بدا عليها شَعْرَه، هذا الشَّعر شديد السواد، والَّذي أصر الشاعر أنْ يصف لنا شدة سواده فأتى بوصفين دالين على ذلك هما: "أحمَّ، غربيب" ولشدة هذا السواد فإنَّ هذه الشعرة البيضاء قد أفسدت هذا الانسجام، وسَوأت هذا التناغم، والشاعر يعلم أنَّ هذه الشعرة البيضاء ما هي إلا طليعة لذلك الجيش العرمرم الَّذي سيفتك برأسه في قادم الأيام، ثم إنه لا يستطيع منعه، أو لا يمتلك ما يمنعه به، ولمَّا كان انتشار

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ١٩.

الشَّيب في رأسه أمرًا واقعًا لا محالة، أخذ الشاعر في الحنين إلى شبابه وأيام صباه وكأنَّ رأسه قد اشتعل شيبا، وكأنَّ عمره قد جرى في هذه اللحظات المعدودة فأصبح شيخا هرما، وحنين الشاعر إلى صباه ليس حنينا عاديا إنما هو حنين يشبه حنين هذه الإبل المسنة "النيب" واختارها دون غيرها؛ لأنَّ حنينها أشد من حنين غيرها ليأسها من النتاج وضعف طمعها في معاودة الوطء[١] فحاله تشبه حال هذه الإبل فقد أيس هو أيضا من رجوع صباه، كما أنَّ أيام صبا الشاعر ليست أياما عادية وإنما هي أيم غيد، ثم ينتزع الشاعر من الشَّيب شخصا يناديه معاتبا إياه ومنكرا عليه كيف أذهب شبابه؟! ولماذا أغرى به أحبابه حتى تركوه؟!، ولماذا زهَّد فيه النساء حتى هجرنه؟! ثم يطلب من هذا الشَّيب أنْ يرد عليه شبابه ويأخذ منه ما اكتسبه مِن خبرات؛ لأنَّ هذه الخبرات بضاعة غير مرجوة عند النساء، وإنما المرجو عندهن هو الشَّباب والفتوة، ولعل هذه الأبيات هي أول أبيات قالها الشاعر في حديثه عن الشَّيب، وتَظهر فيها شدة تألمه وتوجعه.

وفي موضع آخر يصور الشاعر حاله بعدما ولَّى شبابه، ودهمه الكِبَر والشَّيب؛ فأصبح وحيدا حزينا متألما فيقول:[٢] (الطويل)

فَلِلَّهِ ثَوبٌ مِن شَبابٍ سُلِبتُهُ ∴ وَغودِرتُ في ثَوبٍ مِنَ الشَّيب أَسمالِ

صَحِبتُ زَماني وَادِعَ البالِ قَلَّما ∴ خَطَرتُ لِهَمٍّ أَو لِبُؤسٍ عَلى بالِ

جَديدَ سَرابيلِ الشَبيبَةِ رافِلًا ∴ مِنَ العَيشِ في ضافي المَساحِبِ ذَيّالِ

وَهأَنَذا مِن بَعدِ أَمنٍ وَصِحَّةٍ ∴ مُسامِرُ أَوجاعٍ مُشاوِرُ أَوجالِ

(١) يُنظر المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ١/ ٨٩ -مطبعة دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الثانية- ١٩٨٧م.

(٢) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٣٦٤.

أُرَقِّـــعُ عُمـــرًا أَخلَقَتـــهُ بِكَرِّهـــا ∴ اللَيـــالي إِلى كَـــم يُرقَـــعُ الخَلَـــقُ البـــالي

عَزَفـتُ عَـنِ الـدُنيا فَمـا أَنـا طـامِحٌ ∴ بِطَـــرفي إِلى وَفـــرٍ عَـــداني وَلا مـــالِ

وَأَعرَضـتُ عَنهـا غَـيرَ مُكتَـرِثٍ لَهـا ∴ وَسَـــيّانِ إِكثَـــاري لَـــدَيَّ وَإِقلالـــي

وَلَـم يَبـقَ لـي عِنـدَ اللَيـالي لُبانَـةٌ ∴ كَـأَنّي قَـد ماتَـت مَـعَ الشَّـيب آمـالي

فَلَسـتُ أُبـالي اليَـومَ كَيـفَ تَقَلَّبَـت ∴ عَلـى عَقِـبِ الأَيّـامِ وَالـدَهرِ أَدوالـي

يستهل الشاعر أبياته متعجبا مما رماه به الزمان فقد ذهـب شـبابه، وعلاه الشَّيب، وصار الهم والبؤس رفيقاه، وحيـاة الشـاعر تنقسـم إلـى قسمين، أولهما: قسم الشَّباب والفتوة وقد كان الشاعر فيه وارف العـيش، غض الشَّباب، قوي البنيان، مطمئن النفس، وآخرهما: قسم الكِبَـر: حيـث تبدلت أحواله فصار شبابه كِبَرًا، وصحته سقما، وقوته وَهْنًـا، وقـد أدرك الشاعر أنَّ حالته هذه ستستمر أو ستسوء حتى يرحل عن هذه الدنيا، ولمـا أيقن الشاعر أنَّ أيام شبابه وفتوته ولَّت بلا رجعة رغب عن الدنيا، وعـزف عن بهرجتها، وصارت زينتها لا تغريه ولا تشغله، وكأن آماله وطموحاته قد ماتت حين دهمه الكِبَر، وعلاه الشَّيب، والأبيات تصوير دقيق أبدع الشـاعر في نسج خيوطه، وتأمل قوله: "سُلبته" وقوله: "وغُودرت" وكأنَّ الشاعر في معركة وقد سُلب عنوة درعه " ثوب شبابه" الَّذي يحميـه، ويقيـه عـوادي الدهر، ثم تُرك في ثوب خَلِق "أسمال" لا يقيه مضرة، ولا يـدفع عنـه أذى، وتأمل أيضا قوله:

صَـحِبتُ زَمـاني وَادِعَ البـالِ قَلَّمـا ∴ خَطَـرتُ لِهَـمٍّ أَو لِبُـؤسٍ عَلـى بـالِ

جَديـدَ سَـرابيلِ الشَـبيبَةِ رافِلًـا ∴ مِـنَ العَـيشِ في ضـافي المَسـاحِبِ ذَيّـالِ

لقد كان في شبابه "رافلا" آمنا مطمئنا بعيـدا كـل البعـد عـن الهـم والبؤس، يعيش في وفرة من الشَّباب، وسعة من العيش، وتأمل تصويره في

قوله: "قلَّما....." إنَّ الهمَّ والبؤس لم ينزلا به قط، بل إنَّه لم يخطر على بالهما إلا قليلا، وكأنهما قد شُغلا عنه في أغلب الوقت، وحتى عندما تذكراه لم يستطيعا النزول به؛ لعلمهما بما يرفل فيه من أثواب الشَّباب وسعة العيش، ثم يتنبه الشاعر وينبه متلقيه بقوله: "وهأنذا" وكأنَّه تنبه فجأة إلى ما صار إليه أمره فأصبح (مسامر أوجاع، مشاور أوجال) وهي أوجاع متعددة وأوجال متنوعة من الفزع والخوف، وقد آثر الجملة الاسمية لإفادتها الاستمرار والثبوت، ويستمر الشاعر في رسم صورته الحزينة فيقول:

أُرَقِّعُ عُمرًا أَخلَقَتهُ بِكَرِّها ∴ اللَيالي إِلى كَم يُرقَعُ الخَلَقُ البالي

وتأمل روعة التصوير ودقته في قوله: (أُرَقِّعُ...) وكأنَّ عمره هذا ثوب أخلقته الليالي فتركته رثا باليا، ومهما حاول إصلاحه لا يستطيع لِعظَم ما فعلته به الليالي، لقد جعل الشاعر من هذه الليالي عدوا غشوما لا ينفك عن مهاجمته، ولمَّا أيقن الشاعر أنه هالك لا محالة من عدوان هذه الليالي، عزف عن الدنيا وأعرض عنها غير مكترث بزينتها ولا زخرفها.

ويصور الشاعر سرعة انقضاء شبابه وذهاب أيام سعادته فيقول:[1]

(المتقارب)

كَأَنّي رَأَيتُ زَمانَ الشَّباب ∴ وَنَضرَةَ عَيشٍ بِهِ في الكَرى

وَما كانَ مَرُّ لَيالي السُلُوِّ ∴ إِلّا كَخَطفَةِ بَرقٍ سَرى[2]

يصور الشاعر في بيتيه السابقين سرعة انقضاء شبابه وانصرام أيام فرحه وسعادته، وكأنه رأى زمان شبابه حال نومه، ثم يردف هذا التصوير بتشبيه آخر أكثر سرعة فيشبه مرور أيامه الرغيدة بهذا البرق الخاطف،

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٨٢.

(٢) السُّلو: من السُّلْوة وهي رَخاءُ الْعَيْش. يُنظر لسان العرب لابن منظور ١٤/ ٣٩٦.

وفي هذين التشبيهين لمحة جميلة من الشاعر ولو وضع أحدهما مكان الآخر لكان كلامه فاسدا، فبيته الأول وإن كان يدل على سرعة مرور أيام شبابه، فإنَّ فيه تمهلا وطولا إذا قارناه بالبيت الثاني، وفي هذا إشارة إلى أنَّ أوقات شبابه لم تكن كلها أوقات دعة وراحة، وإنْ كان قد غلب عليها الدعة والراحة والسعادة.

يتضح لنا مما سبق أنَّ الشاعر استطاع أنْ يُبث مشاعره وانفعالاته من خلال صُوره، مستعينا ببعض الأدوات الفنية الأخرى مما جعل المُتلقِّي يتجاوب معه، ويشاركه أحاسيسه وخواطره.

المحور الرابع: الشَّباب والشَّيب والموسيقا:

يجب على الشاعر بعدما تختمر الفكرة في رأسه، وتتأجج المشاعر في صدره أن يختار بحرا يتساوى مع هذه الأفكار، وينسجم مع هذه المشاعر وقد أشار ابن طباطبا إلى ذلك بقوله: فإذاَ أَرَادَ الشَّاعِرُ بناءَ قَصيدةٍ مخَضَ المَعْنى الَّذِي يُريد بِنَاءَ الشِّعر عَلَيْهِ فِي فِكْرِهِ نَثْراً، وأعَدَّ لَهُ مَا يُلْبسُهُ إيَّاهُ من الْأَلْفَاظ الَّتِي تُطَابِقُهُ، والقوافي الَّتِي توافِقُهُ، والوَزْنِ الَّذِي سَلَسَ لَهُ القَوْلُ عَلَيْهِ"[1]

واختيار الوزن المناسب ضروري لأنَّ بعض التجارب والأفكار في حاجة إلى طول معالجة وعرض وبعضها لا يحتاج إلى ذلك، كما أنَّ انفعالات الشاعر ومشاعره في بعض الأوقات تكون ثائرة حادة كما في الرثاء مثلا فإنه في حالة وقوع المصيبة فالغالب في هذه الحالة أنَّ الشاعر يختار وزنا قصيرا ينفث فيه عن نفسه، ويذكر مصابه فإذا ما مضى بعض الوقت وهدأت

(١)عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع ص ٧، ٨-مطبعة مكتبة الخانجي- القاهرة – دون ذكر سنة الطباعة ورقم الطبعة.

مشاعره إلى حد ما فربما اختار وزنا طويلا ليحتمل هذا الوزن أن يعدد مناقب الميت ويذكر محاسنه وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى ذلك بقوله: "على أننا نستطيع ونحن مطمئنون أن نُقرر أنَّ الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية"(١)

ولست أقصد بذلك ما ذهب إليه بعض النقاد الذين رأوا بأنَّ هناك أوزانا مخصوصة لأغراض بعينها فالحقيقة أنَّ بحور الشعر جميعها تصلح لأغراض الشعر كلها، وتستطيع أنْ تحمل عواطف الشاعر ومشاعره وأحاسيسه على اختلافها، وإنما قصدت أنْ ينجح الشاعر في اختيار ما يناسبه من وزن ينسج عليه شعره، وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى ذلك فقال: "ويحسُن بعد كل هذا ألا نفرض قواعد معينة يلتزمها الشاعر في تخير وزن من الأوزان تحت تأثير عاطفة خاصة، وعلى ناقد الأدب أنْ يبحث هذا بحثا مستقلا في كل قصيدة، ليرى من معانيها وموضوعها ما إذا كان الشاعر قد وُفق في تخيُّر الوزن أو لم يُحسن الاختيار"(٢)

وليس الوزن وحده هو من يُساعد في حمل انفعالات الشاعر، وإنما تشاركه في ذلك القافية، والشاعر المتمكن الحاذق هو الَّذي تنقاد إليه القوافي، وتكون صدىً لانفعالاته ومشاعره دون تكلف أو تعثر ودون أن

---

(١) موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ص ١٧٥، ١٧٦-مكتبة الأنجلو المصرية للطبع والنشر-الطبعة الثانية- ١٩٥٢م.

(٢) السابق ، ص ١٧٨.

يُبعده السعي وراء القافية عن تجربته، وقد أشار ابن طباطبا إلى شيء من ذلك بقوله: فإذاَ أرَادَ الشَّاعِرُ بناءَ قَصيدةٍ مخّضَ المَعْنى الَّذِي يُريد بِنَاءَ الشِّعر عَلَيْهِ فِي فِكْرِهِ نَثْراً، وأعَدَّ لَهُ مَا يُلْبسُهُ إيَّاهُ من الْأَلْفَاظ الَّتِي تُطَابِقُهُ، والقوافي الَّتِي توافِقُهُ، وأعْمَلَ فِكْرَهُ فِي شُغْل القوافي بِمَا تَقْتَضِيهِ من الْمعَانِي، وإن اتَّفَقَتْ لَهُ قافيةٌ قد شَغَلَهَا فِي مَعْنىً من الْمعَانِي واتَّفَقَ لَهُ مَعْنًى آخر مُضَادٌ للمعنى الأوَّل، وكانَت تلك القَافيةُ أوْقَعَ فِي المَعْنى الثَّاني مِنْهَا فِي المَعْنى الأوَّل نَقَلَها إلَى المَعْنى الْمُخْتَار، الَّذِي هُوَ أحسَنُ، وأبْطَلَ ذَلك البَيْت، أَو نَقَضَ بعضَهُ وطَلَبَ لمعنَاهُ قافيةً تُشَاكِلُهُ ويَكون كالنَّسَّاج الحاذِق الَّذِي يُفَوِّفُ وَشْيَهُ بأحسَنِ التَّفْويف ويُسَدِّيه ويُنيرُهُ، ولَا يُهَلْهِلُ شَيْئا منهُ فَيَشِينهُ.(١)

ويقول الدكتور عبد الفتاح صالح: "فإنّه مما ينبغي التنبه إليه هو ضرورة أنْ تك ون القافية جزءًا لا يتجزأ من المعنى، بحيث لا نشعر أنَّ البيت مجلوب من أجل القافية، بل تكون هي المجلوبة من أجله، ولا يؤتى بها من أجل إكمال البيت أو إتمامه بل أنْ تَأتي ملتحمة بالمعنى المُراد فيكون معنى البيت مبنيا عليها ولا استغناء له عنها، فنحس إحساسا تاما بأنها نهاية طبيعية للبيت لا نهاية مفتعلة مصطنعة، والقافية في الشعر الجيد تجعل قاريء النص أو متذوقه لا يستطيع أن يستبدل كلمة بأخرى دون أن يتبدل المعنى أو يتغير تغيُّراً كبيرا"(٢)

(١) يُنظر عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع ص ٧، ٨ بتصرف.

(٢) عضوية الموسيقى في النص الشعري للدكتور عبد الفتاح صالح نافع ص ٧٨ –مطبعة مكتبة المنار–الأردن– الطبعة الأولى – ١٤٠٥ه/ ١٩٨٥م.

وأمَّا حرف الروي الَّذي تبنى عليه القافية فله أهمية كبيرة في الدلالة على عاطفة الشاعر، وإن لم تكن هناك قاعدة مطردة تربط حروف القوافي بموضوع الشعر يقول الدكتور محمد غنيمي هلال: وليس من قاعدة تربط حروف القوافي بموضوع الشعر والأمر في ذلك يُشبه علاقة البحور بموضوعات القصائد. (١)

وينبغي على الشاعر كذلك أن تكون موسيقاه الداخلية صدى لمشاعره وانفعالاته، وقد أشار أحد النقاد إلى ذلك بقوله: والموسيقى الداخلية التي تأتي من أصوات الكلمات وجرسها الداخلي تدل بأصواتها على حالات شعورية خاصة عند قائليها، وهذا يمكن أن يُضاعف تأثر المتلقي ويزيد من إحساسه بتجربة الشاعر.(٢)

وقد استطاع سِبْط ابن التعاويذي أن يُوظف موسيقاه في الكشف عن مشاعره وانفعالاته تلحظ ذلك في قوله:(٣) (مجزوء الرجز)

واعَجَبي وَحادِثُ الـ ∴ دَهرِ كَثيرُ العَجَبِ

لَم يُبقِ لي صُروفُهُ ∴ في لَذَّةٍ مِن أَرَبِ

قَد ذَهَبَت لَذَّةُ أَيـ ∴ ـيَامِ الشَّباب المُذهَبِ

وَأَخلَقَت جِدَّةُ أَثـ ∴ ـوابِ الشَّباب القُشُبِ

وَنَفَّرَ البَيضَ الدُمى ∴ بَياضُ الفَودِ الأَشيَبِ

وَنَجَمَت في لِمَّتي ∴ طَوالِعٌ كَالشُهُبِ

(١) يُنظر النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال ص ٤٤٣.

(٢) يُنظر العاطفة والإبداع الشعري للدكتور عيسى علي العاكوب ص ٢٤٥-مطبعة دار الفكر-سورية-الطبعة الأولى- ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٢م.

(٣) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٥، ٤٦.

مُؤذِنَـــــــهٌ أَن أَتَوَلـــــــــْ ∴ لى بَعـــــدَها عَـــــن كَثَـــــبِ

وَالطـــــــالِعُ الشـــــــارِقُ لا ∴ بُـــــدَّ لَـــــهُ مِـــــن مَغـــــرِبِ

إنه يتعجب من ذلك الدهر الَّذي قلب له ظهر المجنّ، وأذهب شبابه ونشاطه، وقتل حبه للحياة؛ فصار لا يلتذّ بشيء من بهجة الدنيا وزينتها، ثم يوضح الشاعر أنَّ الشَّيب الَّذي بدأ في غزو رأسه كان سببا في ترك الحسان له، وإعراضهن عنه، وحتى إنْ كان هذا الشَّيب في أوله فإنَّ مصيره معروف، وهو أنَّه سيأتي على رأسه كله، وتجد الشاعر قد أجاد استخدام الدفقات الموسيقية ليصور حاله، وجاءت موسيقاه معبرة عن إحساسه بالألم والحسرة لما فعله الزمان والشَّيب به، فبداية من اختياره مجزوء الرجز والَّذي يُناسب حالة الشاعر القلقة وما اعتراها من انقباض وضيق، مرورا باختياره حرف "الباء المكسور" قافية وهو حرف مجهور كما أنه جاء به مكسورا ليناسب شعوره بالضعف، وإحساسه بالانكسار جراء ما فعله الزمان به، كما أنَّ الشاعر أكثر من استخدام الكلمات التي بها حروف مد في أكثر الأبيات تجد ذلك في قوله: "واعَجَبي، حادِث، كَثير، صُروفه، أَيّام الشَّباب، أثواب الشَّباب، البيضَ الدُمى، بَياضُ، طَوالِع، أَتَولّى بَعدَها، الطالِع الشارِق" وهذا يناسب تأوه الشاعر وتألمه، وفي مقابل هذه الكثرة في استخدام حروف المد تجده أتى ببعض الكلمات التي خلت من حروف المد كقوله "لم يُبق، أخلفت، نفَّر، نجمت" وكلها كلمات تدل على سرعة انقضاء عهد الشَّباب، وسرعة انتشار الشَّيب في رأسه، وانفضاض البيض عنه، فانظر كيف زاوج بين الأمرين، كما أنه أكثر من التدوير فأتى به في خمسة أبيات من أصل ثمانية، ولا يخفى ما للتدوير من دور كبير في الدلالة على نفسية الشاعر،

وإثرائه الموسيقى الداخلية في الأبيات، وكأني بالزمان قد أحدث شرخا في نفس الشاعر وقسمها نصفين فناسب ذلك أنْ يأتي بالتدوير.

وفي موضع آخر يتذكر الشاعر أيام شبابه النضرة فيقول:(١)

(الخفيف)

مَن تَناسى عَهدَ الشَّباب فَإِنَّي ∴ لِحَميدٍ مِن عَهدِهِ غَيرُ ناسِ

أَخلَقَ الدَهرُ جِدَّتي وَغَدَت مَنـ ∴ ـكوبَةً بَعدَ مِرَّةٍ أَمراسي

يا نَهارَ المَشيبِ مَن لي وَهَيها ∴ تَ بِلَيلِ الشَبيبَةِ الدَيماسِ

حالَ بَيني وَبَينَ لَهوي وَأَطرا ∴ بي دَهرٌ أَحالَ صِبغَةَ راسي

وَرَأى الغانِياتُ شَيبي فَأَعرَضـ ∴ ـنَ وَقُلتُ الشَّباب خَيرُ لِباسِ

كَيفَ لا يَفضُلُ السَوادُ وَقَد أَضـ ∴ ـحى شِعاراً عَلى بَني العَبّاسِ

يستهل الشاعر أبياته السابقة بهذا الاستفهام الإنكاري والَّذي وجهه لمن يتنكر لشبابه، ويجحد ما كان فيه من نعماء، ويرى الشاعر أنَّ هذا التنكر جحود لا ينبغي؛ ولذلك فقد نأى بنفسه أنْ يكون جاحدا لشبابه، ناسيا لذكراه الطيبة، وقوله: "تناسى" إشارة إلى أنَّ مَن تناسى عهد شبابه بذل جهدا حتى يستطيع نسيانه، وهذا يقودنا إلى تساؤل مهم لماذا قد يلجأ إنسان إلى تناسي طور شبابه؟!! مع أنَّ هذا الطور -غالبا- هو أفضل أطوار حياته، ربما يكون مَن يتناسى هذا الطور قد مر بتجارب مريرة، ومواقف عصيبة دفعته إلى محاولة نسيان هذه المرحلة مِن حياته، لكنَّ الشاعر قد استمتع بأغلب هذا الطور مَن حياته، ولذلك فهو مستمسك بعهده، يعيش على ذكراه الطيبة، ولذلك تجده يؤكد محافظته على التمسك بهذا العهد بقوله: "فإنّي"، ثم ينتقل الشاعر إلى تصوير حاله بعد أنْ علاه الشَّيب، وكيف

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٣٧.

أنَّ الدهر قد غيَّر أحواله وبدَّلها، والدهر لا يُبقي شيئا على أصله، بل لابد له أنْ يُعمل فيه يد التغيير والتبديل، فقد أحال شباب الشاعر هرما، وقوته ضعفا، وأنسه وحشة، وسواد شعره بياضا، وكانت النتيجة أنْ حيل بين الشاعر وبين ما يشتهي مِن زينة الدنيا وبهجتها، فأعرضت الغانيات عنه، وزهدن فيه، ويحاول الشاعر أنْ يلتمس لهؤلاء الغواني عذرا مبررا رأيهم في أنَّ السواد أفضل مِن البياض، مستدلا على رأيه هذا بأنَّ بني العباس اتخذوا اللون الأسود شعارًا لهم، وكأنَّهم باتخاذهم له شعارًا قد اكتسب فضلا على سائر الألوان، وهذا البيت يُثبت حبّ الشاعر لبني العباس، وولاءه لهم، وبهذا البيت استطاع الشاعر أنْ ينتقل إلى غرضه الأساس في القصيدة وهو مدح الناصر لدين الله لتولِّيه الخلافة، وما أجمله من انتقال سهل وبديع!!

وقد أجاد الشاعر استخدام الدفقات الموسيقية ليصور حاله، وجاءت موسيقاه معبرة عن إحساسه بالألم والحسرة لما فعله الزمان والشَّيب به، فبداية من اختياره بحر الخفيف وهو بحر يتسم بوضوح النغم واعتداله، بحيث لا يبلغ حد اللين ولا حد العنف ولكن يأخذ من كل بنصيب[1] ليعبر من خلاله عن مشاعره الصادقة وساعده في ذلك اختياره حرف السين رويا وهو حرف مهموس وجاء به مكسورا ليناسب انكساره وحزنه على ذهاب شبابه، كما أنَّ الشاعر أكثر من استخدام الكلمات التي بها حروف مد تجد ذلك في قوله: (تَناسى، الشَّباب، فَإِنَّي، لِحَميد، غَيرُ ناسٍ، جِدَّتي، منكوبة، أَمراسي، يا نَهارَ المَشيب، وَهَيهاتَ، الشَبيبَة، الديماسِ، حالَ بَيني، لَهوي، وَأَطرابي، أَحالَ راسي، الغانِياتُ، شَيبي، الشَّباب، لِباس، السَوادُ، أَضحى، شِعارًا، عَلى بَني العَبّاسِ) وهذا يناسب تأوه الشاعر وتألمه، وفي مقابل هذه الكثرة في

(١) يُنظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها للدكتور عبد الله الطيب المجذوب ٢٤٢/١.

استخدام حروف المد تجده أتى بكلمات قليلة خلت من حروف المد كقوله: (أَخلَق) والَّذي يصور سرعة الدهر في إذهاب جِدَّته وشبابه، ثم يتبعها بقوله: (وغدت) ليؤكد عدم إمهال الدهر له، وانظر أيضا إلى قوله: (فأعرضن) وكأنَّك ترى بعينيك سرعة إعراض هؤلاء الغواني لمَّا رأين شيبة الشاعر، وقد استطاع الشاعر من خلال الطباق في قوله: (تناسى، غير ناس، و المشيب والشبيبة، وشيبي والشباب) أنْ يُحدث نوعا من الإمتاع الفني، وأنْ يزيد من إحساس المتلقي بما يُعانيه الشاعر من حيرة وألم، وقد أكثر الشاعر من التدوير فأتى به في خمسة أبيات من أصل ستة، ولا يخفى ما للتدوير من دور كبير في الدلالة على نفسية الشاعر، وكأنَّ الشاعر أراد أنْ يَحْمِلَ نفسه والمتلقي على إتمام البيت جملة واحدة دون توقف حتى يصل إلى نهاية البيت فيجد حرف الردف الألف ليشعر في نهاية كل بيت بهذا النفس الخارج بتأوهٍ مليء بِالألم والحزن والحسرة، ويسلمك هذا الردف إلى السين المكسورة فتستنزف ما تبقى من نَفَس، وكأنه يُسلم روحه نهاية كل بيت.

يتضح لنا مما سبق أنَّ سِبط ابن التعاويذي أجاد في توظيف موسيقاه للكشف عن مشاعره وانفعالاته.

خاتمة البحث

الحمد لله حمدا يُوافي نِعمه، ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أمّا بعد

فلم يُكن حديث سِبط ابن التعاويذي عن الشَّباب والشَّيب حديثا عابرًا، وإنَّما شكَّل ظاهرة ملموسة في شعره؛ لذا استحق البحث والدراسة، وقد انتهيت بفضل الله -ﷻ- من هذا البحث الَّذي تناولت فيه معنى الشَّباب والشَّيب، وجانبا مما ذكره الأدباء عنهما، وتحدثت فيه -بإيجاز- عن سِبط ابن التعاويذي، ثمّ تناولت أنماط حديثه عن الشَّباب والشَّيب، ثم تحدثت عن الشَّباب والشَّيب والتشكيل الفنّي للقصيدة، وبعد هذه الدراسة المتأنية تبيَّن للبحث عدة نتائج وتوصيات أهمها:

- جاء حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب متنوعا ومختلفا، فتارة يدعو إلى اغتنام الشَّباب، وتارة يبكي على انقضائه، وتارة يذم الشَّيب، وتارة يتعايش معه ويدعو لاغتنامه.
- استطاع الشاعر أنْ يُعبر عن تجربته الشعرية بصدق ودقة.
- شمل حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب مواضع متعددة من أشكال القصيدة، فجاء في القصائد والمقطوعات، أمَّا في القصائد فجاء في مقدمتها وختامها، ومجيئه في المقدمات كثير جدا، وأمَّا مجيئه في ختام قصائده فنادر، وأمَّا حديثه عن الشَّباب والشَّيب في المقطوعات فكثير لكنه أقل من حديثه عنهما في مقدمات قصائده.

- استطاع الشاعر أنْ يوظّف الصورة الشعرية في نقل تجربته إلى المتلقي.
- أجاد الشاعر في استخدام موسيقاه الشعرية للتعبير عن مشاعره وانفعالاته.

هذا ويوصي البحث بأنْ تتم دراسة نتاج الشاعر سِبط ابن التعاويذي من زوايا أخرى كدراسة الطَّيف أو الوصف عنده، كما يوصي البحث كذلك بتناول ظاهرة الشَّباب والشَّيب عند شاعر آخر أو في عصر كامل.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

فهرس المصادر والمراجع

- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر للدكتور عبد القادر القط – مطبعة مكتبة الشَّباب –١٩٨٨م.
- البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر للدكتور علي علي صبح – مطبعة المكتبات الأزهرية– القاهرة– الطبعة الثانية – ١٤١٦ه/١٩٩٦م.
- التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو –مطبعة الدار العربية للكتاب– الطبعة الثانية– ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ديوان إبراهيم بن هرمة تحقيق محمد جبار المعيبد –مطبعة الآداب– النجف–العراق– ١٣٨٦ه/ ١٩٦٩م.
- ديوان حسان بن ثابت تحقيق الدكتور وليد عرفات –مطبعة دار صادر– بيروت – ٢٠٠٦م.
- ديوان سِبْط ابن التعاويذي اعتنى بنسخه وتصحيحه د.س. مرجليوث – مطبعة المقتطف بمصر– ١٩٠٣م.
- ديوان عبيد بن الأبرص شرح أشرف أحمد عدرة –مطبعة دار الكتاب العربي–بيروت–الطبعة الأولى– ١٤١٤ه/ ١٩٩٤م.
- سِبْط ابن التعاويذي حياته وشعره لنوري شاكر الآلوسي –مطبعة الأزهر– بغداد– الطبعة الأولى– ١٩٧٥م.
- سحر البلاغة وسر البراعة لأبي منصور الثعالبي تحقيق عبد السلام الحوفي –مطبعة دار الكتب العلمية–بيروت– دون ذكر رقم الطبعة وسنة الطباعة.
- شعر الأحوص الأنصاري جمعه وحققه عادل سليمان جمال –مطبعة مكتبة الخانجي–القاهرة–الطبعة الثانية–١٤١١ه/ ١٩٩٠م.

- الشهاب في الشَّيب والشَّباب للشريف المرتضي -مطبعة الجوائب- قسطنطينية-الطبعة الأولى- ١٣٠٢ه.
- العاطفة والإبداع الشعري للدكتور عيسى علي العاكوب -مطبعة دار الفكر- سورية-الطبعة الأولى- ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٢م.
- عضوية الموسيقى في النص الشعري للدكتور عبد الفتاح صالح نافع - مطبعة مكتبة المنار-الأردن- الطبعة الأولى - ١٤٠٥ه/ ١٩٨٥م.
- عن اللغة والأدب والنقد رؤية تاريخية ورؤية فنية للدكتور محمد أحمد العزب - مطبعة دار المعارف - الطبعة الأولى - ١٩٨٠م.
- عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع -مطبعة مكتبة الخانجي- القاهرة - دون ذكر سنة الطباعة ورقم الطبعة.
- عيون الأخبار لابن قتيبة -مطبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤١٨ه.
- في محيط النقد الأدبي للدكتور إبراهيم أبي الخشب ص ٢١٨ - مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الأولى - ١٩٨٥م.
- لسان العرب لابن منظور -مطبعة دار صادر - بيروت -الطبعة الثالثة- ١٤١٤ه.
- اللطائف والظرائف لأبي منصور الثعالبي -مطبعة دار المناهل- بيروت- دون الإشارة إلى رقم الطبعة وسنة الطباعة.
- المخصص لابن سيده تحقيق خليل إبراهم جفال - طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت-الطبعة الأولى- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- المستطرف في كل فن مستطرف لأبي الفتح الأبشيهي- مطبعة عالم الكتب - بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٩ه.

- المستقصى في أمثال العرب للزمخشري –مطبعة دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الثانية– ١٩٨٧م.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي تحقيق إحسان عباس –مطبعة دار الغرب الإسلامي– بيروت –الطبعة الأولى– ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس –مكتبة الأنجلو المصرية للطبع والنشر–الطبعة الثانية– ١٩٥٢م.
- النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال –مطبعة دار نهضة مصر– القاهرة – الطبعة السادسة– ٢٠٠٥م.
- الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى –مطبعة دار إحياء التراث –بيروت– ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- وفيات الأعيان لابن خلّكان تحقيق إحسان عباس –مطبعة دار صادر– بيروت– الطبعة الأولى– ١٩٧١م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١١٦٣
٢-	Abstract	١١٦٤
٣-	مقدمة.	١١٦٥
٤-	التمهيد.	١١٦٩
٥-	١- مفهوم الشَّباب والشَّيب، وحديث الأدباء عنهما.	١١٦٩
٦-	٢-التعريف بسِبْط ابن التعاويذي.	١١٧٤
٧-	المبحث الأول: أنماط حديث الشاعر عن الشَّباب والشَّيب وفيه:	١١٧٨
٨-	أولا: الدعوة إلى اغتنام الشَّباب.	١١٧٨
٩-	ثانيا: ذمّ الشَّيب والبكاء على انقضاء الشَّباب.	١١٨٣
١٠-	ثالثا: التعايش مع الشَّيب، والدعوة لاغتنامه.	١١٨٧
١١-	المبحث الثاني: الشَّباب والشَّيب والتشكيل الفني للقصيدة وفيه:	١١٩١
١٢-	المحور الأول: الشَّباب والشَّيب والتجربة الشعرية.	١١٩١
١٣-	المحور الثاني: الشَّباب والشَّيب وبنية القصيدة.	١١٩٦
١٤-	المحور الثالث: الشَّباب والشَّيب والصورة.	١٢٠١
١٥-	المحور الرابع: الشَّباب والشَّيب وموسيقا القصيدة.	١٢٠٦
١٦-	خاتمة.	١٢١٤
١٧-	فهرس المصادر والمراجع.	١٢١٦
١٨-	فهرس الموضوعات.	١٢١٩

تم بحمد الله